HAMZA ALHASSAN
حمزة الحسن
ولادة الذئب
رواية

ولادة الذئب

حمزة الحسن

رواية

الكتاب: ولادة الذئب
المؤلف: حمزة الحسن
التصنيف: أدب/ رواية
الناشر: دار بصرياثا للثقافة والأدب للنشر
الترقيم الدولي (ردمك): 978-9922-8818-1-2

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، ولا يجوز اعادة انتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على موافقة المؤلف واذن مسبق من دار النشر.

All rights reseved. Except for the quotation of short passages for puposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2024

BASRAYATHA PUBLISHING
IRAQ- BASRA
P.O.BOX 1289
009647767437680

أطفال ليلة الغزو

الطفل الذي كان يبحث في تل النفايات في تلك الظهيرة الصيفية الملتهبة حيث السراب حوّل المنازل في الخلف الى خيوط ضوئية مرتجفة تحت سماء بلون البرونز، ثم صرخ واستدار لينظر الي بكل ما في الكون من رعب كلوحة إدفارد مونك «الصرخة»، جعلني جامداً من الدهشة والتوقع والانتظار، وعندما حاولت سؤاله عن السبب وعن ماذا يفعل وعن اسمه وعنوانه، لم يجب بل كان يرتعش واختفت الصرخة لكن حل مكانها وجه طفل يهرم مع اللحظات كما لو انه نسي من هو وماذا وجد وأين يسكن وعبثاً حاولت استنطاقه لكنه تمسك بي من يدي وكف عن الصراخ ولم يتوقف عن الارتعاش . كل شيء فيه يرتعش حتى وجهه وثوبه المهترئ وفمه ومعه ترتعش المنازل والأشجار الغارقة في سراب صيفي في الافق ونيران شمس النهار كما لو أن العالم يحترق.

صادف ان ذلك هو الاول من تموز عيد ميلادي وعيد ميلاد جماعي مزور كما لو ان الصدف تسخر في ان اتواجد مثل هذا اليوم في مكب للنفايات مع حشد من الاطفال يطلق عليهم بـ «النباشة « بوجوه منهكة وثياب رثة في اقتصاد «القوت الاسود» بين روائح كريهة او يركضون خلف شاحنات النفايات في انتظار افراغ حمولتها وحول المكب خيم وغرف الصفيح والتنك من بينهن نساء بالثياب السود كغربان في هذه الظهيرة القائظة بحثا في القمامة عن اي شيء بلا كمامات ونبش بالاصابع من معلبات الطعام الى مواد كهربائية وورق وملابس وقناني وعلب بلاستك وفلين ونايلون واثاث منزلي والمنيوم من طلوع الشمس حتى منتصف الليل خاصة في المناطق التجارية حيث احياء الفقراء لا ترمي نفايات ومن الصعب في تلال النفايات التمييز بين انسان وبين طاولة او كرسي او باب او تل قمامة لان اللون واحد كما ان شمس الظهيرة وحدت بين الجميع في مساواة لا تتوفر في مكان آخر سوى هذا المكان.

لم يتكلم الطفل البالغ التاسعة تقريبا لكنه اشار نحو مكان محدد وهو يرتعش ومشيت في الاتجاه عابراً اكوام النفايات والنباشين الصغار والكبار حتى وصلت الى حفرة في اكوام كان الطفل قد وقف فوقها عندما صرخ. لم أصدق ما رأيت:

فتاة عارية ممزقة الجسد وحول رقبتها شال أزرق مرمية بين اكوام من القشور والقناني والعلب والاسلاك وغيرها. كانت فقط باللباس الداخلي للحشمة الساخرة في حين كان وجهها الممزق بالطعنات وجسدها الذي تحول الى ساحة طعن لا يخفي ملامح انثوية وجمال طفولي ناضج وفم مفتوح يشبه فم الطفل الصارخ متجه نحو سماء من البرونز تلك اللحظة.

تذكرت لحظتها ساعات الجنود الالكترونية القتلى المرميين وهي تعزف موسيقى عيد الميلاد تحت سماء مشتعلة تشبه سماء اليوم، في صيف تموزي يشبه هذا، حيث تتكدس الجثث قرب وحدة ميدان طبية قبل نقلها بشاحنات عليها شعارات وصور تشبه شاحنات السيرك الى المستشفيات العسكرية ثم نقلها حسب برنامج الى المدن على أنغام محطات التلفزة والراديو ومكبرات الصوت والاحتفالات، بعيداً عن الفنادق الكبرى وموسيقى المراقص ونوادي الليل وطاولات الويسكي. تذكرت خطفاً كيف جلس جواري يوماً جندي في مطعم طريق بعد أن ركن شاحنته البيضاء الطويلة التي عادة ما تُستعمل لنقل جثث الجنود وجلس يأكل بشهية لكني لم أسيطر على فضولي وسألته وأنا أشير للشاحنة:

« فارغة؟»

دون أن يلتفت إليّ وهو يأكل، أجاب:

« ٣٥».

ليس أكثر من رقم في شاحنة.

عندما نظرت خلفي لم اشاهد الطفل. اختفى بين تلال البشر والنفايات وتحول سراب الظهيرة الى لون رمادي جارح ومحرق لكن سيارة تابعة للبلدية من سيارات نقل الازبال وقفت قريبا من المكان ونزل منها ثلاثة رجال بثياب موحدة مع نقالة وحملوا الجثة دون كلمة واحدة كما لو انهم اعتادوا على هذا العمل ولفها ببطانية تالفة ورميها في السيارة بلا أي انفعال.

ذلك النهار عدت الى فندق قصر سيوان في شارع السعدون في البتاويين قرب تقاطع ساحة النصر وتمثال السعدون. كان الفندق مغلقاً ومصادراً لسنوات بعد عام ٢٠٠٣ من جهة مسلحة وحاولت الصعود الى الطابق الرابع لكن عامل الفندق قال لي إن سيدة جاءت هنا قبل دقائق وتركت لك هذه الورقة:

« أنتظرك في مطعم سيمون في ركن صغير في ساحة النصر. كبة بغدادية حارة تجعلك تلتهم اصابعك».

صعدت السلالم بسرعة لتغيير ملابسي وتحاشيت النظر الى الغرفة ٢٤٥، مخزن ذكريات سنوات الحرب، وفيها جرت احداث كثيرة وعندما فتحت الباب، هجمت عليّ رائحة فراش وعطر ازهار صناعي وضوء من النافذة وحلم قديم مرتبك.

عدت سريعاً ووجدتني في قلب شارع السعدون بين المارة شارد

الذهن. كان تمثال عبد المحسن السعدون رئيس وزراء العراق المنتحر في ٣١ تشرين الثاني ١٩٢٩ لرفضه التوقيع على اتفاقية مع بريطانيا عام ١٩٢٥ وقد يكون قتل في لعبة مخابرات وتمثاله اليوم ليس هو الاول المصنوع من الفايبر كلاس الذي سرق عند سقوط بغداد في ٩ نيسان ٢٠٠٣ بل تم استبداله باخر من مادة النحاس وكان التمثال الاول من عمل النحات الايطالي بياترو كانونيكا عام ١٩٣٢، واقفاً على قاعدة رخامية يحمل اوراقاً ويده الأخرى طليقة.

عبرت الشارع الى الطرف الاخر حيث كانت عمارة «النجوم » وفكرت كيف دخلت العمارة هارباً من رجال الامن خلال الحملة على اليسار والشيوعيين والمستقلين اواخر السبعينات عندما بدأت حملة مطاردة الشيوعيين بعد انهيار التحالف، وكنت نازلاً من الجبال بعد سبع سنوات حرب عصابات مدمرة، في اليوم الاول من التسريح، أجد أمر القبض علي كشيوعي، لم يكن ذلك صحيحاً لكني وجدت نفسي، كالعادة، هارباً، وفي بغداد كانت موجات الفارين من مدن الوسط والجنوب قد ملأت الفنادق والحانات والحدائق.

من كنت تعرف انه أصلع الرأس، تجده وضع باروكة، ومن كان أملطاً تجده مشورباً أو العكس، من كان بالبنطال تجده بالعقال واليشماغ كما لو أن اليسار العراقي دخل في حفل تنكري، حتى أني لم أتعرف على صديق طفولة جلس الى جانبي في حافلة بشعر مسترسل أسود كان يحلم به، وهو في الواقع أصلع حتى دوت ضحكته.

كنت ذلك المساء مع صديق نمشي في الشوارع العامة بلا مبالاة غريبة كما لو أننا خارج هذا الكرنفال التنكري المرعب والمداهمات والتعذيب حتى الموت كأعضاء في لجنة تحقيق دولية حتى سمعت منه في لحظة في شارع السعدون صرخة في أذني كافية لأطلاق السيقان للريح ولكن في أي اتجاه؟ الشارع مزدحم في المساء ومن شوارع بغداد الكبرى. صرخ في أذني فجأة كدوي مدفع:

" أمن".

يقصد الأمن العراقي وكلمة» أمن» تعني الموت والتعذيب وتشل الحركة والتنفس والسيقان مع ان كلمة أمن في كل قواميس الأرض تعني الأمان.

شاهدته يدخل بوابة عمارة» النجوم» راكضاً، العمارة اليوم متجر أدوية، فدخلت خلفه بسرعة لكني فقدت الأثر، صعدت سلالم العمارة الى السطح وهي تضم مكاتب أطباء ومحامين ورجال أعمال وغيرها. في السطح وجدت حفلة طرب وشرب وضرب الأصابع ونقر على طاولة ولا تعرف من هو المحامي المغني أو الطبيب الراقص، كما لو أن عالم سطح العمارة لا علاقة باسفل العمارة في الشارع. عندما هدأ الوضع بعد ساعة نزلت الى الشارع بحثاً عن الصديق الذي حكى لي حكاية اختفاء غريبة تشبه روايات كافكا.

قال:

« وجدت باباً نصف مفتوح ودخلت والظاهر انه مكتب محامي لوجود بدلته الخاصة بالمرافعة على شماعة ارتديتها بسرعة مع القبعة وجلست خلف المكتب وبدأت أكتب لا أعرف ماذا في ورقة أمامي ولا اعرف اين المحامي وعندما أطل رأس أحد رجال الأمن انسحب واعتذر».

اضاف كما في فيلم بوليسي في جو معتم:

«وجدت على طاولة صغيرة جوار الكرسي زجاجة ويسكي،

فشربت كأسا، ماشي؟».

« ما شي».

قبلتها برصانة مفتعلة.

« كانت ستارة النافذة مطرزة بأزهار ناعمة وفراشات والهواء يلعب بها. ماشي؟».

" ما شي"

تحتاج الحكاية الى تدقيق وفيها ثغرات ولا يوجد مثل هذا التركيز على تفاصيل شاعرية لرجل مضطرب لكني قبلتها في زمن كابوسي.

لا مشكلة من صنع حكاية كابوسية في زمن زالت فيه الفوارق بين الواقع والكابوس ومن يدري قد يكون المحامي هو ضارب الاصبعتين

فوق السطح رغم ان صاحبي وضع بهارات حارة على الحكاية وقال انه سمع تاوهات ناعمة مهيجة من غرفة مغلقة في المكتب لكنه تمالك نفسه. أي واجه مشقة وتدخلت ارادته في خلطة متناقضة بين الشرطة السرية والجنس والرغبة والقمع. كما تكره السلطة الرغبة لانها لا تهدف سوى ذاتها، تولى هو الأمر بنفسه، مكرهاً. سواء كانت القصة حقيقية ام لا، لكن هذا ما حدث.

وجدتها خارج مطعم سيمون منتظرة تحت ظل شجرة رغم تحسن الطقس في بداية المساء ومن الواضح ان انتظاري كان طويلا وقد فرغت من طعامها وعندما شاهدتني قالت مندهشة:

« كما لو أنك خارج من كابوس. هل كنت نائما؟»

« لا لم أنم، لكنه كابوس ولا شهية لي ومن الأفضل الذهاب الى مكتبك لأني متعب».

كان مكتبها عبارة عن شقة فارهة وهو مكتب محاماة تعمل فيه كمحامية محترفة في شارع السعدون في عمارة بالقرب من سينما سميراميس مقابل سينما بابل وقطعنا المسافة صامتين وهي تتوقع حدثاً مثيراً لكني قلت لكسر الصمت او بدافع اخر:

« أنت أجمل مما عرفتك؟».

« هذا لأنك في وضع مرتبك. هل الأمر خطير؟».

لأننا نعمل في مجال خطير للغاية تحت عناوين واغطية وأسماء ومهن لذلك توقعت امراً خطيراً. قلت:

« ليس كذلك لكنه صادم ومقرف».

أومأت برأسها وصعدنا سلالم العمارة للطابق الثاني المطل على الشارع الذي بدأت الحركة فيه تتسع بعد برودة الهواء وظلال العمارات والمحلات، وعندما كانت تحاول فتح الباب بالمفتاح سحبتها في عتمة الطابق بقبلة طويلة وكانت قد استجابت حالاً وسحبت المفتاح كما لو انه لم يعد ضروريا وانتزعنا أنفسنا بعد سماع وقع خطوات صاعدة.

داخل الشقة صورة جدارية طويلة على امتداد جدار لغابة صفصاف وسرو وأشجار وأزهار وطيور بيض في خريق متوهج ذهبي محترق يتناقض مع صيف عراقي ملتهب.

كانت الشقة في الواقع مركز عملنا الرئيس وهو التحري عن ظاهرة انتشرت في السنوات الاخيرة عن مقتل نساء وفتيات من مختلف

الاعمار مع مزاعم انتحار وعادة تكون أداة القتل خنقاً بالشال أو الحبل أو الرصاص أو الحرق لكن تحريات الشرطة اثبتت ان كثيرا منها عمليات قتل منظمة لاخفاء الجناة والحفاظ على المظاهر في حين تكون طريقة القتل في مدن اربيل والسليمانية ودهوك هو السم أو الحرق أو الرصاص أو الخنق.

* * *

مقبرة المنبوذات

منذ الاحتلال عام ٢٠٠٣ بلغ عدد الكرديات المقتولات تحت شعار» غسل العار» بالآلاف وهذه هي الأرقام من منظمة» آسودة» لشؤون المرأة الكردية التي ترأسها السيدة خانم رحيم لطيف، وتتنوع أنواع القتل من الرصاص الى السم الى اجبار الضحية على الانتحار بالحرق أو الخنق وهي الحالات المبلغ عنها فقط ولا يتم التبليغ في القرى والجبال حيث القتل والدفن وحتى في المدن.

عام ٢٠٠٣ ـ عدد الضحايا ٣٢٩ في عام واحد.

عام ٢٠٠٤ ـ عدد الضحايا ٢٩١.

عام ٢٠٠٥ ـ عدد الضحايا ٧٧٨.

عام ٢٠٠٦ ـ عدد الضحايا ٨١٢.

٢٢٢٢ أمرأة أجبرن على الانتحار.

حسب أرقام وزارة صحة الاقليم، ٥ حالات قتل في اليوم ونسبة

الموت حرقاً بالاكراه هي الأكبر كعرف شائع، أعمار الضحايا ١٨ سنة فما فوق وهناك طفلات دون العاشرة. الدكتور برزان محمد علي مدير الطب العدلي في مستشفى السليمانية قال إن ٩٨ بالمئة من حوادث القتل تتم الاكراه على الانتحار حرقاً.

حدث ذلك في أربيل والسليمانية ودهوك وتضاعفت الارقام في أربيل.

تقرير وزارة الخارجية الأمريكية من قنصلية اربيل يقول:

١٤٠ فتاة في سن ١٣ ـ أطفال ـ حرقاً عام ٢٠٠٦،

في السليمانية،

في أربيل، يقول التقرير، ٦٦ امرأة في دهوك ٢٤ وفي عام واحد.

هذه تقارير تتوقف عند عام ٢٠٠٦ والمذبحة مستمرة وتضاعفت بسبب التحولات الجديدة في المجتمع الكردي، وتوجه المنظمات السياسية نحو وسائل الترفيه الرخيصة وانتشار الازياء الفاضحة، والمراقص والمخدرات وتداعي سريع للقيم التقليدية ولا تذكر التقارير حالات القتل غير المبلغ عنها التي تجبر الضحية على حفر قبرها بيدها وتجري لها محاكمة في قبر ثم تنهال عليها السكاكين والرصاص أو البنزين.

في احصاء رسمي من مديرية الشرطة العامة، قسم جرائم « الشرف» عام ١٩٨٤، خلال حرب الخليج الاولى مع إيران، وهو سري

للغاية، بلغ عدد النساء المقتولات المبلغ عنهن في الجنوب بين عام ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ أكثر من ٥٠ ألف امرأة في أكبر ابادة في التاريخ منسية، من غير القتل والدفن السري وهو الأكثر شيوعاً وفي حالات تجبر الضحية على حفر قبرها وتجري محاكمة داخل القبر ثم تنهال عليها السكاكين أو الرصاص. لكن هذه المرة ظهر اسلوب مخترع للقتل وهو الانتحار. في الوسط والجنوب اضعاف هذه الأرقام.

في السليمانية في تلة سيوان ١ تقع «مقبرة المنبوذات» وفيها أكثر من ٧ ألف قبر للنساء المقتولات تراوحت اعمارهن بين ١٥ ـ ٤٥ سنة، في مكان منعزل بلا أسماء على الشواهد ولا تعريف ولا زيارات إلا خلسة من قريب او محب بعد منتصف الليل، والكتابة الوحيدة عبارة» إيرامكاي زيان» أي» مستقر الحياة»، وبين عامي ٢٠١٠ ـ ٢٠٢٠ قتلت ٤٩٠ امرأة حسب احصائية طبية لكن العدد الحقيقي أكبر بكثير. عام ٢٠٠٨ وصل العدد ٧٢ والقوانين متساهلة.

إلى جانب قبور النساء، قبور فتيات حديثات الولادة عثر على جثثهن مرمية في مجاري الصرف الصحي أو أماكن نائية، وفي تصريح لناشطة لوكالة شفق نيوز تقول تانيا كمال خلال العشر سنوات الاخيرة ـ التصريح عام ٢٠٢٣ ـ تم قتل أكثر من ألف امرأة والأرقام في تصاعد مستمر، من بين الضحايا فتيات قاصرات في سن الطفولة.

وهي تخلع الحذاء الصيفي المرصع بزهور صناعية زرقاء، التفت الي قبل الجلوس على الأريكة المقابلة في مكتبها الباذخ، وقالت:

« لن تكتب اسمي الصريح لو كتبت يوماً رواية».

« سأترك لك اختيار الاسم».

« ولن تقول ان هذه رواية حقيقية؟ لأن من السهل تتبع الأثر»

« لا، سأفعل كما فعل كولون ويلسون في: ضياع في سوهو»: إسمي هاري بريستون، طردت من سلاح الطيران الملكي الخ. مناسب؟».

« تقريباً، مع الاشارة المنافقة التي يمارسها بعض الكتاب في ان الاسماء والوقائع الواردة في هذه الرواية محض صدفة من وحي الخيال الخ الهراء».

« إن وقائعنا أبعد من الخيال. هل نجلس لنتحدث عن رواية قد لا تكتب أم نمارس الحب أم أروي لك ما حدث؟».

« هل يمكنك تأجيل ما حدث؟ هل ضروري وملح الآن؟».

« ليس ملحاً. لكن لا أدري لم اليوم أنت متوهجة؟ من الشمس أم الرغبة أم الضجر أم الخوف من عملنا؟».

« لا أدري. أشعر فقط أننا قد نقع في ورطة أو متاعب جدية. هل أنت مدرك خطورة ما نعمل؟»

« تمام الادراك لكن بلا تهويل. هل قال لك العقيد حازم شيئاً جديداً عن حوادث القتل أو الإنتحار؟»

« في الحقيقة أرسل لي قائمة من الحوادث موثقة باليوم والتاريخ

والامكنة ولجان التحقيق مع صور الضحايا وشهادات القتلة أو الشهود مع قائمة اغتيالات قديمة وجديدة طالت أطباء وعلماء ورجال قانون وطيارين لافراغ البلد من الطبقة الوسطى وأفغنته».

« هذا مخطط جاهز قبل الاحتلال. العقيد حازم معجب تماما بشخصية محقق التحري في روايات أجاثا كريستي بوارو».

« لا اعرف ذلك لكنه متحمس للعمل وقد يكون ذلك تحت قناعة في انه سيكون بطلاً روائياً وليس بدافع أخلاقي».

« هو بطل فعلا فيما يفعل ولا حكم على النوايا حضرة المحامية....»

قالت:

« فريدة».

« رائع هذا الاسم المستعار وهو اسم فريدا فون ريشتهوفن المرأة المتزوجة التي تركت زوجها البروفسور وابناءها الثلاثة التي وقع ديفيد هربرت لورنس في حبها وهربا معا الى بافاريا في المانيا ثم ايطاليا وتزوجا بعد ان حصلت على الطلاق وكتب روايته: أبناء وعشاق».

« ثانية حكاية الهروب؟».

كما لو انها تسرعت في فتح جرح، أضافت:

« لم لا تترك فندق سيوان؟ سيظل طيفها يطاردك»

« قررت أخيراً تركه لأن الاقامة فيه تعني الاقامة في جرح مفتوح».

« آسفة لإثارة الموضوع».

«لا أسف لأنني لم أنس. في الطابق الرابع من فندق سيوان جرت تلك الوقائع، تعرفين الباقي».

كان رنين هاتفها مخرجاً من الجو السوداوي الذي تكثف في المكتب، وعندما رفعت هاتفها النقال، سمعت صوت العقيد حازم يتحدث، قائلاً:

« هل جنرال السرد معك الآن؟».

« نعم، شكراً على التقرير».

« غدا سنذهب معاً الى مكان عفن، هل يتسع وقتكما للذهاب؟».

لوحت لها أن توافق وحدد لها الساعة العاشرة صباحاً والمكان قرب ساحة تمثال كهرمانة والاربعين حرامي يوم كان عدد الحرامية يمكن ان يُعد وجرارها الحجرية وهي تسكب الماء المغلي على اللصوص البؤساء. أغلقتْ الهاتف ودخلتْ غرفة جانبية لتبديل ملابسها وبقيت على مقعدي أفكر في كل شيء ولا شيء وكانت ضجة الشارع ترتفع كلما تقدم المساء وتحسن الطقس لكن هذا ليس كل شيء عن شارع السعدون الذي يكون خطراً أحياناً من عصابات مسلحة وخاصة من فتيان ولدوا منتصف ليلة الاحتلال،أطفال ليلة الغلطة أو الجريمة، بلا مدارس ولا أمل ولا عمل ولا أفق، ولدت الذئاب التي ستلتهم الجميع

يوماً وتؤسس حزباً بشعارات براقة كما فعل طفل التاريخ المشوه الدكتاتور السابق وانتقم من الجميع ومن نفسه في النهاية لأنه كان قد دحرج عربة من فوق جبل ولن يوقفها غير الحضيض.

نحن الآن في القعر نبحث عن جثث منسيات منبوذات في مقابر منسية أو في مجاري الصرف الصحي أو الوديان حتى بلا قبور. الاسماء فوق الشواهد توضع لبشر كذلك تواريخ الولادة والموت والمنبوذات لسن من عالم البشر. يلوح الواقع لغرابته وكثافته ولا معقوليته شديد الغرابة كما لو انه ليس حقيقياً إلا في الظاهر وهناك خلفه الواقع المخفي بمهارة وحفلات واعلانات وطبول لحجب الواقع.

كان عليّ بعد ثلاثين سنة في المنفى العودة للتحقيق في الجريمة ذاتها وفي الامكنة ذاتها كما لو في رواية دائرية وزمن محنط مكرر والفارق هو اختلاف اسماء القتلة والقتلى والقضية هي: الجسد، السلطة، الرغبة، القبيلة.

رغم معرفتي بكل زوايا المكتب لكني لم أدقق في الجدارية العريضة التي تكون خلفي عند الجلوس على الاريكة في مواجهة الباب وحين التفتُ هذه المرة، كانت عبارات: **The Qandil Mountains** صغيرة مكتوبة بخط ملتوي بالاتكليزية» وبالكردية جياي قه نديل **Çiyayên Qendîl** جبال قنديل معقل حزب العمال الكردستاني التركي **PKK** ولأن اللوحة او البانوراما للجبال والغابات ربيعية، وقد يكون ذلك

مقصودا منها في تشتيت الداخل في حال وقوع طارئ، فلم تلفت نظري لأني عرفت المكان في شتاء جليدي يوم أوشكنا نحن الجنود الثلاثة أن نطمر تحت الثلج ذلك الشتاء البعيد على سفوح قنديل.

لم تتوقف العاصفة الثلجية منذ ثلاثة أيام ونحن على قمة جبل قنديل، معقل حزب العمال الكردي التركي المسلح اليوم، لا شيء غير البياض كما لو أن الحياة تولد من بين هذا الغمر الابيض ولا شيء يلوح في الأفق حتى جبال كرده مند وحصاروست وجبل» سكران» المثلج في الصيف والشتاء، واختفت بلدة جومان تحت الثلج ولم يعد يظهر الجسر الصغير المؤدي الى بلدة رايات وتحته مجرى مائي حجري هادر ولا فرن الخبز المجاور، لا أحد، لا شيء، سوى نحن الجنود الثلاثة. لقد انقطعنا عن العالم وعن مقر الجيش وعن أنفسنا، بسبب قصف الهاون قطعت أسلاك الهاتف التي تربطنا ببدالة المقر وتوقف جهاز اللاسلكي بسبب الطقس وهبوط البطارية، لو لم نزح الثلج عن باب الملجأ لكنا قد دفنا أحياء كانت تلك الأيام أيام عيد الاضحى. كان الثلج يتساقط كتلاً كالأشباح البيض كنت أحاول بكل الطرق تشغيل اللاسلكي الروسي اللعين لا أسمع شيئاً، من المستحيل العثور على مكان السلك المقطوع لكي لإصلاحه وسط أطنان الثلج واختفاء كل أثر أو درب.

" دفنا، أحياءً".

قلت مع نفسي ثم طلبت من الجنديين الاقتصاد بالحطب، كي

لا نموت من التجمد ومن النفط القليل الباقي للفانوس وكنت أحتفظ للطوارئ بعلبة شموع بيض، في الحقيبة ثلاثة كتب: الأعمال الكاملة للشاعر بول أيلوار، ورواية همنغواي وداعاً أيها السلاح، رواية الموت حباً لبيار دوشين وبندقية محشوة بالرصاص وقلق من أن يطول سقوط الثلج، لا منقذ هنا ولا ذئب يعوي حتى لا عدو قد يكون حلاً من الحلول.

التاريخ يسكن هنا في المنسي والمهمل والمقصي من الحياة من الفرح ومن الحكاية، لا في حكايات المقاهي والحانات، التاريخ الحقيقي رواية الضحية والهامشي، التاريخ من أسفل وليس سردية سلطة. ثلاثة أيام من الثلج والقلق والارهاق، لكن اندلع صوت أحد الجنود بغناء أو عواء جنوبي:

«يا صاح عودي ذبل ـ وبكل دوا ما يصح،

والدمع سال وجرى ومن ناظري ما يصح».“

قلت له صارخاً:

” أوقف الغناء أرجوك“.

ليس من المعقول أن نواجه عاصفتين في وقت واحد، عاصفة ثلجية في الخارج وعاصفة حنين في الداخل، لكنه كان شاحباً ونائياً وبعيداً كليل عراقي طويل:

«والنيب مثلي بحنينه لو صحت ما يصح،

من حيث مضروب بين الجوانح تَبن».“

” قلت لك أوقف الغناء:“

لم يكن غناءً بل كان وداعاً على طريقة الجنوبي، خلال هذا الوقت أغلقت الثلوج باب الملجأ وشرعنا بالمجارف في حفر نفق نحو ماذا؟

أما الجندي الثالث فلقد كان يحاول الخروج من الملجأ نحو الوادي الأبيض، كان ذلك جنوناً لأنه سيدفن حياً ويموت ولا أثر للدرب في هذه المتاهة البيضاء.

أمام الموقد كنا نحن الثلاثة نستعيد حياتنا، لم يبق ما نملك غير أن نروي حكايات لكي نقاوم، ما زالت هي طريقتي في المقاومة وستظل، أكتشف من خلال الحكي أن حكاية كل واحد منا تشبه الآخر، خرجنا من الأكواخ وبيوت الطين والفقر واليتم، رمينا على هذه القمة الجليدية كوليمة للعواصف.

في اليوم الثالث لم يعد هناك ما يكفي من أرزاق الطوارئ للمعلبات غير القليل وكان يجب الاقتصار على وجبة واحدة، لا مشكلة مع الماء لأن الثلج متوفر، لا شيء غير الثلج. بدأ الجندي الثاني وهو جنوبي أيضا يهذي. الشعور بالحصار وغياب الزمان وتلاشي المكان والقلق يجعل الانسان يفقد كل روابطه القديمة، لا أرض يقف فوقها ولا زمان يعرفه،

قررت سحب مخزن رصاص بندقيته بصمت خوفاً من الانتحار،لان هذا حدث كثيراً وكان يردد:

" غرغرينا".

مرض قاتل قد يدمر أعضاء الجسم، تآكل بطيء وأحد أسبابه الثلج والتجمد ويستوجب البتر. داخل هذه المتاهة اندلع هذه المرة العواء بحدة أكبر، كما لو أنه يرثي العالم:

«بمعالج الروح سري لمن أموتن تَبن،

لا تنهضم عا السبع لو صار علفة تبن،

واليوم حتى التبن علف السبع ما يصح».

عندما انتهى سمعته ينشج لكنه ليس بكاء الخائف، بل بكاء الرجال الكبار حين يواجهون أقداراً كبرى في هذا العراء المفتوح على البياض والاحتمال المر.

قلت لتهدئة الوضع:

« قد يكون من الأفضل أن نموت فوق قمة جبل، تحت عاصفة ثلجية كبرى من الموت تحت الاحذية، في الأقل تشعر أنك في صراع مع قوة مهيبة وليس موت حشرات».

لو يمر ذئب الان، لو يظهر عدو، لو يبزغ ضوء، لو تمر جنازة

وموكب مشيعين، موكب دراويش على قرع الدفوف، لكان ذلك حلاً.

فجأة رن الهاتف الميداني:

" هل أنتم أحياء؟".

" حتى اللحظة".

" أصلحنا الخط ونحن في الطريق لكم، اعطنا علامة»."

وقفت في باب الملجأ وأطلقت عشرات الرصاصات على العالم بين الغضب والفرح، لكني سمعت عواءً لا يصدر من أي حيوان، ولا من أي مكان: كان يصدر من أعماقنا نحن الثلاثة.

* * *

البحث عن حلم مفقود

كما لو أن فريدة كانت حلماً أو حكاية واختفت فجأة وانا أنتظر ظهورها في حكاية قادمة أو حلم وشيك وعلاقتي بها تتجاوز المهمة الصعبة في التحقيق بمقتل وانتحار النساء الى أبعد من ذلك وقد تكون التجسيد المفقود للحنان أو حضور المتخيل بعد سنوات المنفى لكنها أيضاً خوض مغامرة مع امرأة جميلة ومثقفة ومن أجل قضية عادلة حيث تلتقي أجمل ما في علاقة من صفات : القوة والانوثة والوضوح والشجاعة والفهم المشترك ، وأنا على يقين انها مستعدة للذهاب الى الحدود القصوى في المهمة لأنها كل يوم وخلال جولاتنا على مكان الجرائم مع عقيد شرطة مكافحة الاجرام ترتب مكتبها كما لو للمرة الأخيرة وتكتب أوراقاً وملاحظات في جرار الطاولة والأرجح لفرد من العائلة التي لا أعرف عنها شيئاً ولم نتحدث في الأمر.

ها هي تخرج من باب غرفة النوم بثوب أزرق شفاف يكشف معالم

جسدها، جسد امرأة في الأربعين، كحقل حنطة ناضج جاهز للحصاد الأخير

قلت مازحاً:

« هذا الظهور يوحي بعاصفة أو زلزال».

استدارت ضاحكة لتقول:

« ليتني كنت أبدو من الخارِج على الأقل، بنفس الأهمية التي أملكها في الداخل».

هتفتُ:

« هذه عبارة الشاعر فرناندو بيسوا».

فقالت:

« التقطتها من صفحتك».

« والآن اشرح لي حدث اليوم بإقتضاب لكي ندرس تقارير العقيد والوثائق وبعضها سجلات محاكم». شرحت لها حدث اليوم في تلال النفايات وكانت مستغرقة وفي النهاية قالت:

« هل نسيت عن أي شيء نحقق ونبحث؟ هو الموضوع نفسه لكن الأمر الفريد هو أننا نفحص أرقام وأسماء جثث دون أن نعثر على جثة وهذا هو الأمر الصادم لك. لكنك لم تأكل شيئاً. أعرف أنك نباتي لكن

هناك المطعم البغدادي للسمك المسكوف وفيه صالة داخلية للعوائل وبعد نهاية التقارير سننزل للعشاء في المطعم الواقع على نهر دجلة في شارع أبونؤاس. لا مشكلة عندك مع السمك».

« لا، خاصة المسكوف».

« والآن تبدأ المجزرة».

« كنت أتمنى لو أستلقي قربك عاريةً واحلم فقط كما فعل إيغوشي في رواية» الجميلات النائمات»لياسوناري كاواباتا وأستعيد طفولتي على رائحتك ولا شيء غير ذلك».

« وماذا كنت تفعل قبل ذلك؟»

ضحكت وأنا أفتح الملف رقم واحد:

« كنت أصير واحداً معك وأنسى أحلامي».

فرشت على الطاولة سجلات العقيد كما لو اننا في ساحة معركة وشرعنا بقراءة التقارير على بعضنا وكانت تصل من الشارع في هذه الساعة السادسة مساءً ضجة خافتة لكنها تتضاءل مع الوقت وليس كما كانت في الزمن السابق لأن الشارع سيفرغ في وقت مبكر بسبب الأوضاع الأمنية. شارع ضاج بالهياكل لكنه فارغ من البشر.

كنا نجلس على كرسيين متقابلين أمام طاولتها العريضة وعلى الحائط صورتها يوم التخرج من كلية الحقوق كزهرة لوز وأجمل، مشعة، طليقة،

فرحة، كصورنا سنوات البراءة يوم كنا نفكر بخط مستقيم، كانت تضع ساقاً على ساق وتقلب الأوراق ويظهر انسياب ضوء المصباح على الساقين كما ينزلق ضوء فوق رخام أبيض.

فريدة تعد تقريراً لمنظمة حقوقية دولية وأنا أساعدها لكني أحتاج ذلك لعمل مختلف لأن هذا الموضوع يلخص كل القضايا الكبرى لكنه يختفي من الواجهة لحساسيته وكنا نأمل أن نظهره تحت الأضواء للتذكير بهذه المذابح المنسية خلف خطوط الحرب، المعركة في الخطوط الخلفية لا تقل وحشية وجنوناً من المعركة أمامها، من يقاتل الارهاب ليس في مطلق الأحوال أفضل منه في قضية المرأة حتى لو نزل للشارع يهتف للديمقراطية ويريد وطناً وعدالة في الوقت نفسه يترك خلفه سجناً للنساء دون وعي هذا التناقض الفاجع. الرجل هو الرجل في ساحة حرب أم مرقص أم سرير أم دار عبادة. قد تنجو إمرأة من إرهابي لكن يغتصبها محرر كما في رواية» إمرأتان» لالبرتو مورافيا حيث هربت الام، في الفيلم صوفيا لورين، من القوات الفاشية والنازية عند دخول روما خوفاً على ابنتها المراهقة الى المناطق المحررة، لكي يغتصبها المحررون في الكنيسة.

أنا قادم يا فريدة من أوربا القرن الواحد والعشرين حيث وباء الكورونا والحرب الروسية الأوكرانية والتضخم وصيحات الابادة هنا وهناك ولم تستطع كل العلوم والأشعار والحداثة وما بعدها ترويض الوحش البشري الذي يحتاج الى قفزات تطورية طويلة وعبر أجيال لكي يصل مرحلة الحيوان في عواطفه وتضامنه مع غيره من فصيلة حيوانات مختلفة عنه

ومن مشاعر الوفاء لكلب واحد في الأقل. أصبحت أصدق ما يقوله بعض العلماء أن هناك بعض العقول تعيش في أزمنة الديناصورات لكن بأقنعة بشرية، أقنعة الجنون المغطى بشعارات وأدوار واعلانات وحفلات وطقوس وجداريات والخ.

كانت فريدة تدون ملاحظات وكذلك أنا في الوقت الذي كان عقلي يسرح بعيداً لكننا في كل الأحوال في المسرح نفسه. لا أستطيع وقف التفكير كيف أن الاف النساء في «مقبرة المنبوذات أو مستقر الحياة» في مكان مهجور لا يصله أحد إلا خلسة منتصف الليل عثر على بعضهن في المجاري الآسنة ومع أطفال رضع تم خنقهم كلقطاء إما بسبب علاقة حب أو إغواء أو خطأ أو انتفاخ مرضي في البطن أو معارة مقاهي أو رفض الأهل الزواج بمن تحب.

كيف يمكن تخيل محاكمة داخل قبر وفي الوقت نفسه تكسو الشوارع صور الزعماء والاتقياء والشهداء والقديسين الموتى ومظاهرات تريد الديمقراطية؟

جاء صوتها متحشرجاً وهي تقرأ هذا التقرير:» أفادت مديرية مكافحة الاجرام وقوع جريمة غامضة لفتاة حصلت ضمن منطقة الحبيبية شرقي العاصمة بغداد سُجلت على أنها انتحار وذكرت المديرية في بيان اليوم أنه لغموض الحادث أحيلت الأوراق التحقيقية الخاصة بالقضية إلى مكتب مكافحة إجرام الحبيبية، حيث تم تشكيل فريق عمل والانتقال

الى محل الحادث، وبعد التحري وجمع المعلومات، تبين أن الحادث جنائي وليس انتحاراً ووفقا للبيان فإنه لدى التعمق بالتحقيق مع المتهم ومواجهته بالأدلة المتحصلة أعترف صراحة بقتل المجنى عليها زوجته».

«عثرت الشرطة العراقية في منطقة أربيل في إقليم كردستان، الثلاثاء، على جثة الناشطة النسوية إيمان سامي مغديد (٢٠ عاماً)، قبل أن تكشف لاحقا أن شقيقها وعمها قتلاها. بحسب ما تداولته مواقع إخبارية عراقية، فإن جثة مغديد وجدت بالقرب من مطار أربيل الدولي، إذ قتلت بعد أن اختارت تغيير ديانتها من الإسلام إلى المسيحية».

«أفادت وسائل إعلام عراقية أن المدونة طيبة العلي قُتلت خنقًا على يد والدها في محافظة الديوانية جنوبي البلاد، بعد عودتها للعراق بطلب من أهلها، ثم قام الأب بتسليم نفسه إلى القوات الأمنية بعد ذلك، فيما لم ترد أي رواية رسمية من وزارة الداخلية أو قيادة شرطة الديوانية بالجريمة وتفاصيلها حتى الآن».

« مسؤول في وزارة الداخلية العراقية في بغداد، يؤكد أنّ عدة حوادث قتل بدوافع ما يعرف بـ "غسل العار» أي تلك التي تقع ضحيتها نساء على أيدي رجال من العائلة، أو حالات ثأر، أو حتى خلافات، أو عمليات جنائية، وقعت في الشهرين الماضيين بالعراق، اعتبرت انتحاراً وجرى إغلاق ملفاتها. وفقاً للمسؤول، فإنّ هذه الحالات كثرت في الآونة الأخيرة، وجرى رصد أربع جرائم قتل لأشخاص داخل منازلهم

سجلت على أنّها انتحار، وأخرى سقوط من أعلى بناية مرتفعة، وكلّها تحوم الشكوك حولها بأنّها جرائم من ارتكاب أطراف، وجرى ترتيب الصورة لتظهر انتحاراً».

« أقدمت المراهقة العراقية «رانيا» على الانتحار شنقاً بعدما علقت نفسها بمروحة بمنزل والدها في إحدى مناطق بغداد، بحسب ما نشرت صفحة «حقوق المرأة العراقية» على تويتر. أفادت الصفحة في بيان مساء أمس الأربعاء، بأنه وصلها مقطع فيديو للحادثة من قبل عائلة الفتاة التي كانت تعيش مع والدها دون إخوتها الآخرين أشارت إلى أنها انتحرت دون توضيح الأسباب، إلا أنها اعتبرت أن التمثيل واضح في المقطع المصور، وأن الانفعال مفتعل من قبلهم».
« أفاد المتحدث باسم المفوضية السابقة لحقوق الإنسان، بأن جرائم «غسل العار» منتشرة في كل مناطق العراق، وتشهد البلاد انتشاراً واسعاً في زيادة هذه الجرائم، وأشار الى ان الارقام الظاهرية تعلن ان هنالك ما لا يقل عن ١٥٠ فتاة او امرأة تقتل سنوياً بسب جرائم الشرف، استدرك أن «العدد اكثر من ذلك».

«أعلنت وزارة التخطيط العراقية على موقعها الرسمي عن إحصائية حول تعرّض النساء للعنف، وجاء في التقرير أن ٢٩ في المئة من نساء البلاد تعرّضن للعنف بمختلف أشكاله».

« في العراق يقتلوننا ويسجلون منتحرات، كتابات على مواقع

التواصل». « إنتحار النساء في العراق موت يعلمه الجميع ويحاط بالكتمان: قناة الجزيرة».

«تقول المفوضية العليا لحقوق الإنسان في العراق إنها رصدت نحو ٣٠٠٠ حالة انتحار في الفترة بين ٢٠١٥ و٢٠١٧ لدوافع مختلفة».

« بلغ عدد الذين قرروا إنهاء حياتهم خلال عام ٢٠١٧ في ذي قار ١١٩ شخصا و٧٦ وفي ديالى و٦٨ وفي نينوى و٤٤ في بغداد و٣٣ في البصرة، وفقا لتقرير المفوضية. الفقر، البطالة، المخدرات التفسخ الأسري».

«في منطقة شارع «المطبك» شرقي العاصمة بغداد، سقطت امرأة مضرجة بدمائها جثة هامدة عند عتبة دارها بعد تلقيها رصاصة في منتصف الجبين أطلقها عليها زوجها إثر خلاف بينهما وفي ذات المنطقة، أقدمت امرأة أخرى بعدما أخرجت أطفالها الثلاثة وأودعتهم عند جيرانها، على الانتحار بسكب مادة النفط الأبيض على جسدها بسبب مشاكل بينها وبين زوجها، في قصة مشابهة للعديد من النساء اللواتي عشن مرارة العنف الأسري المتفاقم منذ تفشي جائحة كورونا والحظر الذي رافقها: موقع سبوتنيك».

«وزارة الداخلية منتصف شهر يوليو الماضي، تسجيل أكثر من ٥ آلاف حالة عنف أسري في البلاد خلال منذ مطلع ٢٠٢١ : «بحسب تقرير خاص نشرته سكاي نيوز تصاعدت حوادث الانتحار في العراق

خلال الفترة الماضية، خاصة لدى الفتيات، في آخر إحصائية عن أعداد المنتحرين، قالت وزارة الداخلية العراقية، إن البلد سجل العام الماضي انتحار ٧٧٢ شخصا، وهي أكثر بنحو ١٠٠ حالة عن ٢٠٢٠، فيما تشير تلك الإحصائية إلى أن الفئات العمرية أقل من ٢٠ سنة كانت نسبتهم ٣٦,٦ بالمئة، أما نسبة الذكور فتشكل ٥٥,٩ بالمئة، والإناث ٤٤,٨ بالمئة كذلك تكشف الأرقام أن المحافظات الجنوبية هي الأكثر تسجيلا لهذه الحالات (محافظتا البصرة وذي قار الأعلى نسبة على مستوى العراق)، وإذا كان الذكور ينتحرون عادة بإطلاق النار على أنفسهم، بسبب فوضى السلاح التي يعيشها العراق، فإن الإناث وأغلبهن من الفتيات، يلجأن إلى غطاء الرأس الذي يعرف شعبياً بـ» الشال» وهو قطعة قماش بطول متر ونصف وعرض نصف متر، وهو الحجاب أو غطاء الرأس السائد في العراق بالإضافة إلى ما يعرف بـ"الربطة"، كما تستخدم بعض الفتيات ما يسمي"حجاب الأميرة"ويباع هذا الغطاء في الأسواق المحلية بسعر دولارين، ويستورد من تركيا وإيران ودول أخرى».

« تقول الخبيرة في علم النفس الاجتماعي الدكتورة صبيحة الصالحي إن غالبية من تم قتلهن باسم غسل العار يُكتشف انهن بريئات بعد الفحص الطبي وكثير من الجرائم ليس بسبب اخلاقي بل يحاول الرجال التخلص من زوجاتهم ولا يعتمد الموقف على الرجل فحسب بل في حالات النساء يلعبن الدور الكبير في تحريض الرجال العشاق على القتل».

تذكرتُ قريبتي» أمل» متصف العشرينات من العمر، التي وجدت محترقة متفحمة في الحمام وادعى زوجها الانتحار لكن طفلتها الصغيرة عندما كبرت تذكرت كيف أن الزوج أجبرها بالقوة على دخول الحمام وهي تصرخ وسكب فوقها البنزين وأغلق الباب وهي خريجة معهد الزراعة وأم لطفلتين لكي يتزوج من أخرى.

في الماضي كنا نعرف من يموت ومن يُقتل ومن يسكن هنا ومن يهاجر ومن هو الغريب والضيف واللص ومن هو البقال الطيب ومن هي المرأة العفيفة والجار الأمين والضابط الشريف أو المرتشي ومن هو السياسي المبدئي ومن المخبر وأي الطرق الآمنة نسلك في الليل ونعرف أن شبح الحكايات ينتظرنا خلف المنعطف ونعرف أسماء الكلاب من نباحها حيث لا ليل في شارع عراقي بلا خلفية موسيقية لنباح كلب ونعرف غيوم أيلول البيض وبرودة الظل والماء بعد صيف قائظ. كنا نعرف ان الطرق الليلي على الباب هو ضيف أو مستغيث ونعرف المارة في الشارع من غرف النوم من وقع أقدامهم ونعرف من داهمها المخاض في أطراف الحي ومن خانت زوجها أو خانها ونعرف من يحتضر وأحزان عاشقات الشارع ونعرف ان عاصفة الغبار طبيعية وليست نتيجة خطة «رايت» الأمريكية يوم رشت الطائرات عام ٢٠١٣ على الحدود العراقية السورية مادة لتصحير الأرض وموت الحقول لتحويل الطبيعة الى أداة حرب خلافا للاتفاقيات الدولية. مراكز أرصاد تتوقع وصول درجات الحرارة في السنوات القادمة الى الـ ٧٠ درجة لكي تتحول

البلاد الى جحيم صحراوي، عواصف ترابية حمراء تهب هذه الأيام في الربيع وأمطار صيفية ومن يدري ربما زلازل قادمة، من غير تماسيح ظهرت في مياه الأنهار لأول مرة وحشرات وثعابين غريبة وذباب يهاجم الناس وذئاب تفترس الأطفال وأدوية منتهية الصلاحية وملابس بالات ملوثة... والخ.

عند سقوط بغداد في ٩ نيسان ٢٠٠٣، وسط الفوضى والنهب والحرائق، هرب مجانين المصحات النفسية والعقلية الى الشوارع لهروب الأطباء والممرضين، وفي ساحة التحرير مركز بغداد ظهر بعض هؤلاء ينظمون حركة المرور في انقلاب جذري لمعنى العقل والجنون، في حين قالت مجنونة فرحةً لصحيفة محلية أن رجلاً أخذها الى داره وجعلها تستحم في الحمام وقام هو نفسه بتدليك جسدها ثم اخذها في نزهة بعد شهر الى شارع مزدحم واختفى وبعد شهور أنجبت طفلة تسمى صوفيا لأنها من عشاق الممثلة صوفيا لورين وسبق لها أن شاهدت فيلمها» أكبر من معجزة» مع عمر الشريف بل تجزم ان الرجل الذي ذهبت معه الى المنزل هو الشريف نفسه لكنه متنكر بلا شارب. تدعي أخرى إنها الآن أكثر حرية من المصح بعد ان تحول البلد كله الى مصح عام وزالت الفوارق، ويمكن أن يتقمص أي لص دور سعيد مهران في فيلم ورواية نجيب محفوظ» اللص والكلاب» وأي معتوهة دور كلوديا كاردنيالي في فيلم « الفتاة ذات الحقيبة» وأي مصاب بالذهان شخصية جارلس برونسون في فيلم» العظماء السبعة». انتهى زمن الوضوح.

لكننا اليوم لا نعرف سوى أخبار القتل والحرائق. تم الغاء ذاكرة وصنع أخرى: ذاكرة البياض وتحولت الوجوه الى أقنعة وأشباح تحت إيقاع قنابل الصدمة والترويع الفيلم الأمريكي الأكثر فظاعة في التاريخ الحديث في تحطيم أمة في وطن.

« هناك مقابر خاصة في بعض المحافظات مخصصة لدفن ضحايا هذه الجرائم كما صرح عضو في مفوضية حقوق الانسان العراقية واضاف» الدفع للانتحار أو الحرق في الحمام او السقوط بعد نشر الغسيل. في عام ٢٠٢٠ سجلت ٢٩٨ حالة انتحار في العراق من بينها ١٣٠ اناث وفي العاصمة وحدها ١٦٨ من الجنسين وفي البصرة ٣٩ والناصرية ٣٣ حالة انتحار».

رفعت فريدة رأسها من الأوراق وقالت:

« هذه حرب وفضيحة».

قلت وانا أقدم لها صورة:

« هذه صورة للفتاة رانيا التي تبلغ سبع عشرة سنة معلقة بمروحة في منزل والدها في بغداد على انه حادث انتحار حسب العائلة لكن منظمة حقوق المراة تقول انه حادث قتل».

هز انفجار عنيف شارع السعدون قذف بفريدة الى حضني على مبعدة مئتي متر تقريباً من العمارة وكانت تبدو هلعة لأننا كنا مستغرقين في

عالم القتل والانتحار في السجلات لكن القتل يجري خلفنا في الشوارع.

« هل أنتِ بخير؟».

رفعتُ رأسها بطرف أصبع كما لو أرفع فراشة أو وردة ومن بين عينيها السوداوين بزغ بريق حاد كعيون أفعى محاصرة. عم الظلام المكتب، في الخارج زعيق صفارة الاسعاف والشرطة. قلت في العتمة الناعمة وفي ضجيج الشارع:

« لا عشاء بعد اليوم ولن أذهب الى فندق سيوان ويمكنك تركي والذهاب الى منزلك ».

قالت بإصرار:

« بل سنذهب للعشاء ولن أذهب الى المنزل وسأتصل فقط بأمي، وهذا الانفجار فرصة مناسبة لك كي تحلم مثل إيغوشي اللعين».

ضحكنا من بين مخاوفنا أو بسببها وقالت:

« هل صحيح حكاية أن تحلم بجواري بالحرب؟»

«مجرد كونك قربي هو حلم».

ليس سوى لحظات حتى دوى انفجار أبعد بالقوة نفسها لكننا لم نتحرك لأن فريدة من الانفجار الأول تضع رأسها في حضني كحمامة في عش دافئ. تسارعت صفارات الاسعاف والشرطة ولا صوت لكائن

بشري وما يزال الضوء مطفئاً، نهضت فريدة على مراحل بثوبها الأزرق كأشرعة لوحات كلود مونيه الشفافة كالهواء والماء والافق، عادت بعد لحظات بعلبة شموع، اضاءت شمعة بيضاء طويلة المكتب، أو فريدة نفسها صارت تضيء المكان وقالت:

«كل ما ينقصنا انفجار ثالث. لنخرج للنهر».

قالتها بتصميم بارد كرسالة مشفرة إليّ تقول إننا عشنا مع الموت وأدمنا عليه ومن كثرة ما عاشرناه فقد الموت رهبته وصار بارداً وعادياً في زمن زالت فيه الفوارق بين الحياة والموت وبين البطولة والانتحار، وبين العقل والجنون، ولو قالت هذا الكلام، كنت سأرفض هذا المنطق، لكني وافقت على الخروج في الأقل لشم هواء الليل ورائحة النهر، وإذا لم أمت في حربين وسجون ومنافي عدة، فسيكون رائعاً الموت في أحضان من تحب. إنه الموت السعيد في زمن ملتبس. ملتبس ليس العادي بل التافه كما في رسالة خاصة من الشاعر سعدي يوسف الذي قال لمن حوله في ساعته الأخيرة:

« لا تعلنوا خبر الوفاة الأن بل في الصباح».

كان مدركاً للحظة العبور وقرر أن يعبر الهاوية الرمادية كملك غادر المأدبة بثبات ويؤجل خبر موته. شعرت أن اطرافي متيبسة من طول الجلوس على وضع واحد في حين كانت فريدة قد ارتدت ملابس الخروج بعقيصة ذيل الحصان، قميض أبيض وبنطال جينز ازرق وحذاءاً

خفيفاً وحقيبة صغيرة. عند باب العمارة هجم علينا نسيم نهري كأصابع رضيع. كنا ننحدر نحو النهر القريب وعبر النهر تلوح أضواء المنطقة الخضراء، القصر الجمهوري سابقاً. كنا نقترب من الشارع. يرتفع صراخ طيور النوارس منقضة من فوق جسر الجمهورية. خلف هذا الليل البهيج ضجيج صامت كما لو انه ينبع من أعماق الليل والتاريخ والأرض. حاولت الامساك بذراعها لكني تذكرت أن الأمر مختلف هنا، وغير مسموح أن تمسك يد من تحب لكن من الممكن أن تمسك بندقية سريعة الطلقات وتطلق النار على جمهور لا تعرفه بإسم عقيدة أو مبدأ لأن العنوان في هذه الأراضي المحروقة أهم من الانسان.

* * *

جنرالات القش

ماذا يمكن توقع من دكتاتور القرية ورفاقه الرعاة الذين تحولوا الى أرقام في أوراق اليانصيب بعد كل ذلك الضجيج، وسلعة مطلوبة ومطاردة وقطيع من الفارين توضع صورهم في الشوارع والمحلات والقطارات وكل الامكنة الأخرى التي كانت صورهم فيها تملأ الجدران، وتملأ القلب بالرعب وتشوه الأمكنة؟

وصل سعر صدام حسين الهارب الى ٢٥ مليون دولار مكافأة من يدل أو يقبض عليه، في حين وصل سعر العقيد القذافي أو ملك ملوك افريقيا الى مليون يورو، وهو سعر زهيد مقارنة بالأموال المهربة والمخبأة التي صارت، اليوم، غنيمة وحوش المصارف وغسل الاموال، أما سعر علي عبد الله صالح الراقص بين الأفاعي، فتراوح بين ٢٠ كيلو ذهب، وبين عشرة ملايين دولار، والمفارقة ان تنظيم القاعدة هو من وضع سعر علي صالح.الناجون من الأسعار هم زين العابدين بن علي لأنه صمم

على أخذ المال وصناديق الذهب مع زوجته ليلى الطرابلسي، وحسني مبارك الذي كان يرعبه مصير القذافي، وأصيب بنوبة ذعر عندما رآه مخوزقاً في قبضة جمهور غاضب فقرر التنازل عن العرش. أما مكافأة القبض على الرئيس السوداني البشير من قبل الولايات المتحدة بعد قرار محكمة الجنايات الدولية في القبض عليه هو عشرة ملايين دولار وهو مبلغ لا يساوى قيمة التأمين على مؤخرة المغنية والممثلة جنيفر لوبيز البالغة ٢٧ مليون دولار، هو المبلغ الذي يساوي قيمة مكافأة القبض على القذافي وعلي صالح والبشير، أي ثلاثة جنرالات رؤساء مقابل وثيقة تأمين مؤخرة، مع أن قيمة التأمين على مؤخرة مقدمة البرامج كيم كارداشيان هو ٢١ مليون دولار، أي سعر مكافأة القبض على البشير وصالح والقذافي مقابل بوليصة تأمين مؤخرة.

تابوت صدام حسين بعد الشنق يُنقل بمروحية أمريكية الى تكريت وتنتظره سيارة بيك آب مفتوحة بيضاء لنقل أضاحي العيد وجزء من التابوت خارج الباب الخلفي، نهاية عبثية لرجل وتاريخ ومرحلة، لكن» حارس السلالة» لا يموت لأنه عقلية ويتناسل وينتشر كالوباء في مناخ مناسب وغير نظيف. من دون قطيعة مع العقل الرث، وجدنا أنفسنا أمام النموذج نفسه بل أمام طبقة من القتلة. القطيعة لا تعني الانفصال بل التصفية. لو عرافة أخبرته بهذا المصير، كان سيأمر بقتلها كما فعل مع العرافة العمياء رفعة الدراجي، هو الذي يخاف من صوت الريح ومن الغيوم ومن مرور العصافير فوق قصوره السرية ومن أحلامه. ألم يخبر

طبيبه الخاص علاء بشير عن حلم أفعى تصارع معها وقتلها وطلب من الطبيب الرسام رسم لوحة عن انتصاراته في الحلم؟ كيف يُهزم في حلم؟ كنا على وشك أن ننسى معارة أم عبد الله الصغير بعد سقوط الاندلس» أبك مُلكاً لم تحافظ عليه كالرجال» التي ألصقها به المؤرخون المنتصرون الإسبان وقد قاتل بشجاعة، حتى جاء سقوط بغداد لكي نكتشف ان رجل التاريخ اختبأ في جحر فئران أمام قصوره عبر النهر، وكان يرى الغزاة يسكنون القصور في حين كان هو يكتفي بتسجيل خطابات باللغة نفسها ما قبل الاحتلال.

رائحة شواء السمك تملأ المكان كلما اقتربنا من مطعم البغدادي المطل على النهر. لم تكن رائحة فحسب بل تشبه كعكة المادلين لمارسيل بروست في روايته» البحث عن الزمن الضائع» عندما اعادته رائحة الكعكة في شاي زهر الليمون الى زمن سابق وتذكر العمة ليوني التي كانت تقدمها له وهو طفل في شرابها من الزيزفون. رائحة السمك المشوي هنا لا تحيل على العمة ليوني بل على تاريخ ثقيل وللأنف ذاكرة كما في كل اعضاء الجسد. غالبية نساء شارع أبو نؤاس بالعباءات السود. الشارع ذكوري. من قال إن الحريم خاصية النساء؟ إنه خاصية عامة. عقم عن التفكير وبتر للهوية الفردية. نحن نولد رجالاً لكننا نؤنث من السلطة، أي حريم ذكوري وأدوات حروب وعلف مدافع، وبالعكس تولد النساء نساءً لكن تسترجل لكي تهرب من انوثتها وجسدها وتتساوى بالرجل.

جلسنا في ركن منعزل. حجزت فريدة سمكة وانتظرنا. رغم الانفجارات

لكن هناك بعض الناس يتسكعون على رصيف النهر أو في المطعم. جمر الفحم مشتعل وفوقه اباريق الشاي وعلى مبعدة أمتار تماثيل شهريار وشهرزاد تحت ضوء المصابيح حيث يختلط الحاضر بالتاريخ. كانت فريدة تتأمل النهر والأضواء المنعكسة في النهر وقوارب الصيادين. في الظاهر تلوح بغداد كعيد متنقل. على عكسها كنت اتنقل بين ازمنة وامكنة لان ذاكرة المنفي كذاكرة الغجري لا ترتبط بمكان ولا زمان بل في المنعطفات، في طريق العربات المرتحلة تحت الامطار، ليس بعيداً عن ذاكرة أسد في قفص يحلم بالغابات والبراري والصيد أو ذاكرة مشرد يحلم بمكان هادئ للنوم في منعطف قادم أو تحت مظلة محل أو درجات سلم منزلي مغطى. نحن، فريدة وأنا، في المطعم لكن كل واحد منا في رحلة أخرى.

« هل انتهيت؟».

سألت فريدة فقلت:

«نعم، كنت أتخيل. المكان جميل كما لو ان الانفجارات حدثت في فيلم».

« هي حدثت في فيلم فعلاً. لا شيء يحدث بلا سيناريو».

« أنت حكيمة جداً بحيث يصعب ضمك وشمك عندما تتحدثين في السياسة. السياسة في الرواية كطلقة مسدس في حفل موسيقي كما قال ستاندال في صومعة بورما، لكن في شرقنا يستحيل تجنبها حتى عسر الهضم والفوبيات والسكتة الدماغية والارق بسبب السياسة».

« منذ متى لم تأكل سمكاً مشوياً بهذه الطريقة؟».

« منذ ثلاثين عاماً».

« عليك في هذه الحالة أن تأكل ببطء لكي لا تتوعك. لن نعثر على صيدلية لحبوب الاسهال في هذا الوقت».

كنت واعياً لذلك وأكلت بهدوء وكانت فريدة تجلس أمامي تفصلنا طاولة خشبية كما لو نحن نجلس على ضفتين وكل واحد منا غارق في عالمه الخاص كلوحات الرسام الأمريكي إدوارد هوبر عن العزلة. لكن ذلك ليس سيئاً. من قال إن الآخرين ليسوا كذلك في قلب هذا الليل الحافل بالأسرار والمفاجآت والألغاز؟

قلت وانا أضع شريحة صغيرة من السمك مغمسة بالليمون في فمي دون أن أتذكر جدتي مثل ليوني بروست وكل ما أتذكره الآن أننا كنا نتخفي من الشرطة السرية في هذا الشارع نفسه بين الزحام الليلي ونتظاهر أننا مواطنون صالحون سعداء وهو فارق بين كعكة المادلين والسمك المسكوف:

« هل عندكِ فكرة غداً عن أي مكان سيأخذنا عقيد التحريات الجنائية حازم؟».

« الأرجح الى منزل أو في الأقل منطقة سكن إحدى ضحايا القتل».

« كولونيل التحري حازم أو بوارو أقرب الى شخصية الفنان والمثقف

والشاعر السريالي».

«كان حلمه أن يصبح ممثلاً».

« وقد تحقق حلمه اليوم ودوره معنا في البحث عن قتلة وضحايا هو دور تمثيلي رائع لأنه يخفي هويته عن الاخرين وبدونه لم نحقق شيئاً في هذه الحرب السرية أو الإبادة المفتوحة. نحن جميعاً نمثل أدواراً في وطن صار مسرحاً. هل راق لك اسم فريدة؟».

« أنت لا تناديني به ولم أسمعه منك».

« آه، فعلاً».

« هل خطر لكَ كيف نتنقل من القتل والانتحار الى حياة عادية؟».

«لا، لم أفكر لأني عشت كل حياتي على هذا النحو على حافات الخطر والتناقضات والصدمات بحيث صارت لحظة هناءة وسلام تضج بالاحتمالات وحتى شرب فنجان قهوة في الصباح يتطلب التصالح مع ثلاثة أزمنة. شاي من فضلك».

ناديت على نادل المطعم. حضر الشاي الاسود الثقيل المسمى الزنكيل من بين الاشياء القليلة الباقية التي لم تُخرّب كما رأيت المبولة العمومية في الباب الشرقي بين حديقة الامة، حديقة الملك غازي سابقاً، وبين سينما غرناطة لم تتهدم ودهشت كيف تلاشت تماثيل وخطابات وايديولوجيات صلبة وصمدت مبولة. فكرت كم شخص قبلي شرب

بهذا القدح او الاستكان الذهبي؟ وكم منهم بقي من الأحياء؟ يبدو اننا عابرون نؤدي دوراً ونختفي كما في المشهد الافتتاحي لفيلم ألان رينيه عن فان غوغ الذي يضع رسالة غوغ في المقدمة: أنا مار عابر أؤدي دورا.

قالت فريدة وهي ترتشف الشاي بأناقة:

« ما نفكر به أكثر مما نقوله».

« لو قلنا كل ما نفكر به، لصارت الحياة صعبة جداً. منذ متى تعلمت حكمة عجائز البدو؟».

ضحكتْ بعمق واستلقت الى ظهر الكرسي قائلةً:

«كانت أمي تردد دائماً حتى وأنا طفلة: أنتِ كعجوز بدو».

« عادة تكون عجوز البدو خلاصة تاريخ».

« والآن لنغادر قبل أن تفرغ الطرقات من البشر وتخرج لنا ذئاب ليلة الغزو».

على حافة النهر، قرب قوارب الصيادين، وأضواء القصر الجمهوري السابق مضاءة في ليل بغداد الحافل بالأسرار، كانت فريدة تلوح لي بالقميص الأبيض كشراع شفاف، كواحدة من حكايات هذا النهر الخالد. إطلاق نار بعيد أعادنا الى الواقع.

« لنرجع».

قالت وغادرنا النهر الى الشقة. كانت ترتقي السلالم أمامي كطائر بودلير الذي يمنعه جناحه الكبير من الطيران. رائحة ليل صيفي تعبق بالمكان وفي داخل المكتب تلوح جبال قنديل مشرقة وخلف النافذة يبدو شارع السعدون موحشاً. عمارة مرجان المطلة على ساحة التحرير غارقة في عتمة باردة. من شارع فرعي في حي البتاويين ظهر كلب ورفع ساقه الخلفية وبال على حائط جامع الأورفلي. نهاية عبثية لا تليق بختام سهرة لقادم من المنفى.

* * *

مطر قديم

في الغرفة الصغيرة الملحقة بالمكتب، الصمت،رائحة مطر قديم، ضحكاتنا، قصيدة سان جون بيرس المراكب الضيقة، أزقة الشوارع الشاحبة، الجنازات، النوافذ الزرق سنوات الحرب، النوم في محطات السفر، المطارات الاجنبية، مواسم العصافير، فيروز وشايف البحر شو كبير، القتال بالسلاح الأبيض فوق جبل زوزك في يوم عاصفة ثلجية مع قوات البيش مركة بعد اختراق مضيق كلي علي بك، القناصة المهرة من جبال نواخين وكورك عندما قام قناصون محترفون باصطيادنا في مضيق ضيق وقتل ثلاثة أربع اللواء. الماضي لن يموت، إنه حتى ليس ماضياً بتعبير وليام فوكنر.

كنا ننتظر ذوبان الثلوج فوق قمم جبال زوزك وهندرين وجبل حسن بيك وغيرها لكي يبدأ هجوم الربيع.

فوق جبل زوزك عام وفي ليلة عاصفة ثلجية تعرضنا لهجوم مباغت دار

القتال فيه بالسلاح الأبيض وسقط فيه جنود وضباط طمرتهم الثلوج وعندما جاء الربيع وذابت الثلوج عثرنا على الجثث كما هي بسبب الثلج وكان مشهداً فوق طاقة مشاعر الانسان أن خطيبة الملازم فهد الشابة كانت تنتظر تحت الجبل إنزال الجثة، جاءت لساحة حرب مغلقة وتحت القصف بأمر خاص، على موعد مع جثة رفيق حياة وحلم. كانت تقف بالثوب الاسود أمام بياض الثلج في بلدة ديانا،

كنصب تذكاري خالد لبسالة ونبل ووفاء المرأة، كانت تنظر نحو قمة الجبل كما لو انه تأخر عن الموعد، كما لو ان موته كان نقضا لوعد،

كما لو أن الموت ليس سبباً لكي يتأخر. الحرب ليست رصاصاً وقتلى ومن كتب عنها على أنها كذلك لم يعش تجربة الحرب أبداً، بل هي مواعيد محطمة ومشاعر مسحوقة ولقاءات ملغية، حوارات مبتورة والفقد واليتم والجرح والحنين والشغف للرائحة. كنا ننتظر ذوبان الثلوج فوق طريق أو ممر هاملتون المحاط بالجبال الشاهقة، جبال هندرين وجبال زوزك المؤدي الى كلالة ثم قضاء جومان ورايات وحاج عمران، أي كنا ننتظر قتالاً في أوعر الجبال والممرات والغابات ما أن يحل الربيع.

كان القتال قد بدأ في الربيع عام ١٩٧٤ من جبل صلاح الدين، الهدف أقصى نقطة حدودية هي حاجي عمران،أي ١٨٠ كلم متر قتال مشياً على الأقدام في جبال وغابات وثلوج ووديان في حرب عصابات منهكة .كنا قد توقفنا في سهل ديانا في الشتاء بعد اختراق مضيق كلي

علي بيك وتعرضنا لابادة شبه كاملة من قناصين من ضفتي المضيق الضيق من جبال نواخين وكورك، عندما أدخلنا العميد الركن طه الشكرجي الذي كان آمر لواء حروب جبلية مع قوات خاصة ومغاوير في ممر جبلي ضيق لا يسمح الا لمرور سيارة، وعلى حافته هاوية سحيقة وفوق قممه يتمركز أمهر القناصين،هذا الضابط لا يعير اهتماماً بالارواح بل بالنتيجة،تم عزله بعد مذبحة المضيق وتعيين العقيد الركن شاكر وجر الإمارة مكانه . طه الشكرجي هو من اتصل به الزعيم عبد الكريم قاسم في ساعات انقلاب شباط ١٩٦٣ في معسكر الرشيد وطلب منه التحرك ضد الانقلابيين ولم يكن يعرف أنه أحدهم فرد عليه الشكرجي بعبارة لرئيس دولة:» إكل خراء».

قامت فرقة الهندسة بفتح طريق التفافي في جبل كورك عبرت فوقه الدبابات، أول معركة في التاريخ تخوضها دبابات فوق الجبال تابعة للفرقة الثالثة المدرعة مدعومة بقوات خاصة ومغاوير،لم يكن الطرف الآخر يتوقع ذلك على الاطلاق.عند الضياء الأول للفجر بدأ هجوم الدبابات والمدرعات من فوق جبل كورك في حين كنا نخترق المضيق الضيق وطوله تسعة كيلم مشياً بقتال كل خطوة تحت أمطار الرصاص من قمتي كورك ونواخين، التقينا في قضاء راوندوز مع الدبابات التي نزلت من كورك،ثم سهل بلدة ديانا المسيحية المهجورة والمخربة تحت الأمطار والوحول.

المضيق مطل على هاوية .كان عقيد الموساد اليعازر تسفارير قد فرّ من بلدة ديانا مقره وكتب في ما بعد في مذكراته وتقاعد برتبة جنرال.

يقول إنه صدم بسرعة وصول الجيش،كل من يتحرك في المضيق يُقتل، كان يجب الاستلقاء مع القتلى والجرحى والانين ،لم يكن من الممكن انقاذنا إلا في اليوم التالي في جو مشمس يساعد على الطيران،لكننا قضينا ليلة بين الموتى والأنين والأقسى هو موسيقى ساعات الجنود القتلى الالكترونية المهربة وهي تعزف لنا من المعاصم الشاحبة موسيقى عيد الميلاد.ناموا أيها الأطفال الكبار على أرق الأمهات المنتظرات،ناموا يتامى التاريخ والسلطة وفرح الفنادق الكبرى وحفلات الرقص لأننا هنا حراس شركات النفط، نحن أرقام في السجلات العسكرية والمشارِح، سينسانا الجميع يوماً وليذهب إيغوشي الى الجحيم مع فتاته النائمة. جاء صوت فريدة من بين الثلوج والرصاص والعصور ناعساً:

« هل انتهيت؟».

«كنا نصعد جبل زوزك ومعركة بالسلاح الأبيض».

بصوت عميق وهي في حضني:

« وصلت القمة؟»

« سأصل لو استدرتِ قليلاً»».

في الصباح وجدتها تعد الافطار في ركن صغير في المكتب. دخلتُ الحمام لكي أستحم كالعادة منذ سنوات. كانت اثارها في كل مكان. تحت الدوش خيل إلي أن كل ما يجري لا حقيقة له. كان الجو الباذخ،

العطور، الماء، الصمت، يبدو خارج الواقع الخارجي. في شارع السعدون في الصباح يرتفع الضجيج. كان الشارع في كل تاريخه وجهاً ثقافياً من السينمات الى المكتبات من المدخل من جهة ساحة التحرير حتى نصب كهرمانة. لكنه اليوم تحول الى محال تجارية ووكالات شركات وعيادات أطباء حتى سينما النصر بواجهتها الجميلة تحولت الى مقهى. كل شيء يتداعي.

مقهى» المعقدين» أو مقهى إبراهيم أبو الهيل الصغير في شارع فرعي يؤدي الى شارع ابو نؤاس كان ملتقي الشعراء والمجانين ورجال الامن ومن تروتسكيين وشيوعين وقوميين وفنانين تحول اليوم الى مقهى للناركيلة والدخان وذهب الزبائن القدامي الى السجون او الحروب او المنافي او المقابر. هذه ليست أمكنة فحسب بل ذاكرة.

« أعرف إنك تحب حساء الشوربة وكل المطاعم هنا شاورمة وكباب وأنت نباتي باستثناء في السرير تأكل اللحم».

ضحكتُ. قلت وأنا أجلس أمامها وبيننا طاولة صغيرة وصحن حساء بالبصل الأسود والثوم:

« لا ينقص الحساء غير الجرجير «.

ضحكت مستلقية للخلف:

"لا أدري ماذا يخبيء لنا كولونيل القتل الصامت».

قلت:

”في كل الأحوال سيكون لديه ما يثير من أخبار وعندنا نصف ساعة للقاء به في ساحة النصر قرب التمثال ومحطة الوقود. لا حاجة لاستعمال سيارتك لأنه سيأتي بسيارة تاكسي للتمويه كما فعل سابقاً. يستهويه الجو البوليسي والغموض».

فرغنا من الافطار وذهبت الى غرفتها في حين تأملت الجدارية الواسعة على الجدار المطل على الشارع. كيف لم افطن الى جبل قنديل ومعه جبل سكران المثلج حتى في الصيف وفي الأسفل بلدة جومان وجسرها المؤدي الى رايات؟ عند دخولنا جومان عام ٧٥ في نيسان، وجدنا في السجن جنودا وطيارين أسرى تم قتلهم والامر نفسه في كلالة وفي رايات قبل هروب البرزاني الأب وأولاده مسعود وادريس الى إيران من بوابة حاج عمران النقطة الحدودية الأخيرة. لا بديل عن القبيلة حتى اليوم. السلطة عقار ومن الثورة الى الدولة.

خرجت فريدة بوجه أقرب الى وجه الممثلة جين فوندا ومن هاتفها تصدح أغنية لسيلين ديو « لأنك أحببتني» والتفتتْ إليّ:

« أعرف أنك تفضل المطربة زهور حسين وفكرت بذلك لكن الوقت لا يتسع لنوبة نحيب وكولونيل الشال القاتل في الانتظار».

ضوء النهار هذا الصباح وفير بما يكفي لسراب ظهيرة مشع. كنا نمشي متجاورين على رصيف مزدحم. وجهها في الشارع صارم لا يشجع

بالاقتراب لكي تتحاشى المتاعب واعرف انه قناع. قلت:

« أنت تصلحين لدور ضابط شرطة بامتياز».

« هذا آخر ما أفكر فيه. أنظر العقيد يلوح لنا من تحت التمثال».

كان العقيد طويل القامة وسيماً بشعر لحية حليق بلا شارب ويرتدي بنطال جينز ازرق فاتح مع قميص أبيض ومنظره العام أقرب الى رجل منتصف الثلاثين بلا مسؤولية وطليق وربما هو المظهر الذي يحاول الظهور به. من جولات سابقة على بيوت وأماكن الضحايا تعرفنا فريدة وأنا على العقيد جيداً أو بالقدر الكافي للتعامل معه وهو يترك انطباعا بالثقة والالتزام وهو كل ما نحتاجه لأن المهمة خطيرة وقد نتعرض لمواقف طارئة لا يمكن الخروج منها في قضية حساسة وفي مفهوم قبلي خاص للشرف مع ان الرهافة والعدالة والضمير والعلم والذكاء والوفاء والنبل والوضوح هي شرف أيضاً. في مقهى مطل على ساحة النصر وتمثال السعدون جلسنا في ركن منعزل. استطعت رؤية المسدس تحت أبط العقيد من انعاكس الضوء. أمام أقداح الشاي حدثته عن جثة مكب النفايات. عندما إنتهيت قال:

« هذه ليست المرة الأولى. قبلها جثة فتاة مرمية بين النفايات وعليها آثار تعذيب في منطقة الشعلة شمالي بغداد، وفي منطقة آل نياز في الناصرية تم العثور على جثة متفسخة في مكب النفايات قرب نهر الهولندي تعود لفتاة بعمر ٢٥ سنة ، وفي منطقة بغداد الجديدة شرقي

بغداد عثرت قوة امنية على جثة امراة مجهولة الهوية في مكب للنفايات وعليها اثار اطلاقات نارية في الرأس، كما تم العثور على جثة رجل ثلاثيني في مكب للنفايات شرقي العاصمة، بل اقسى من ذلك انه خلال تفريغ النفايات من سيارة تم العثور على طفل رضيع داخل كيس في منطقة الدورة ، وخلال جولة تفتيش عثرت قوة أمنية على جثة فتاة في ثلاجة في مكب نفايات كسرة وعطش في بغداد لشابة في العشرين بثوب أسود مقيدة وعلى فمها شريط لاصق وآثار كدمات في الرأس والجسم وكف يدها اليسرى مقطوعة. في يوم واحد تم العثور على ١٦ جثة في مكبات النفايات في مناطق متفرقة من بغداد بعد يوم من العثور على ٦ جثث تم خطفهم وقتلهم. طبيب الطب العدلي في بغداد الدكتور أحمد عبد الخالق قال إن ظاهرة الجثث المجهولة باتت روتينية».

ظاهرة القتل العشوائي والجثث المجهولة في الشوارع بدأت بالظهور عام ٢٠٠٤ بعد أن تم استدعاء كولونيل القوات الخاصة المخضرم جيمس ستيل الى العراق الخبير في صناعة منظمات الارهاب في قارة امريكا اللاتينية وسجله كبير ومشؤوم في السلفادور وكولومبيا بعد الخسائر الامريكية المتصاعدة، وكما جاء في ملف محطة بي بي سي وصحيفة الغارديان زحلق العراق من مقاومة الاحتلال الى صراع اهلي مسلح ونجح في ذلك باسلوب القتل العشوائي من أطراف مختلفة وطوائف الذي يدفع الناس للانتقام بلا صبر ولا فحص. رغم رحيل ستيل عن العراق لكن المدرسة التي أسسها صارت طريقة عمل حتى لمن لم يعرفوه لا بالاسم ولا

الصورة لانه طبّع هذا الاسلوب وحرّك عقداً نائمة في مرضى وقتلة.

أضاف العقيد حازم بعد صمت قصير:

« ظاهرة الانتحار بالشال منتشرة كما في حالة لفتاة في منطقة الامين الثانية شرقي بغداد مواليد ٢٠٠٩ وفي منطقة الميكانيك في الدورة انتحرت فتاة مواليد ٢٠٠٦ بشنق نفسها واخرى فجرت رأسها بالرصاص حسب زعم الاسرة ولم نعد نميز بين القتل والاغتيال والانتحار».

قالت فريدة بنبرة موجعة:

« النظام مسؤول».

قال العقيد:

« بكل يقين، لا أفق ولا أمل وأحزاب سرقت كل شيء وجيل بلا أمل ولا مستقبل وبطالة وسلاح ومخدرات وامراض نفسية وفلتان، ماذا نتوقع؟»

قلت:

« النظام ليس مسؤولاً فحسب بل هو شريك. نحن أمام سياق منظم للابادة الصامتة. من السهل أن تضع شعباً داخل مصيدة خانقة وتحوله الى مذئبة وتطلب منه أن يتوازن. الكل ضحايا، قتلة وقتلى، هذا ليس مناخ حياة وسيأتي يوم سبع الليل من يخرج رأسه من الشارع ويبقى سالماً: لقد ولد الذئب».

قال العقيد وهو يرشف شايه على مهل:

«كان القتل والخطف والاغتصاب موجودا في سجون النظام السابق».

قالت فريدة متحفزة:

« هذا لا يبرر بل دافع للخروج من لعبة الدم. كان النظام شكّل فرقة تسمى» فرقة المهمات الخاصة» لخطف واغتصاب نساء مسؤولين وبناتهم لأجل الاذلال والطاعة مع تصوير ذلك».

قال العقيد وهو يحاول تعديل وضعية مسدسه:

« بالتأكيد لا يبرر».

ثم التفت إليّ بطرية ملفتة وقال وهو يحاول اعادة خصلة نازلة الى رأسه:

« حول طلبك أسماء الذين قتلوا يسرى قبل أكثر من ثلاثين سنة، وبعد الاطلاع على سجل خاص في مديرية الشرطة العامة قسم جرائم الشرف، اتضح ان المنفذ قد مات وهو عميد في الجيش، والباقي ماتوا وكانت أدوارهم ثانوية للتغطية والجثة رميت في النهر، لذلك فرصتك في الانتقام معدومة وانتقامك الوحيد ما تقوم به اليوم في الكشف عن ضحايا هذا القتل المسرحي القذر».

لم أتوقع غير هذا لطول المدة وقلت:

« الذين شاركوا في قتلها أكثر بكثير من المتوقع: النظام من خلال مفرزة حزبية كانت تطلق النار في الشارع وقت الجريمة للتغطية بحجة مطاردة هارب من الحرب وكذلك المحكمة متواطئة وطبيب البلدة الذي زودهم بوثيقة طبيبة عن انتحار مزعوم وابعد من ذلك صمت الجيران وشيخ الجامع الذي شرعن القتل: نحن أمام جرم جماعي».

قالت فريدة بوجع:

« عندما يتعلق الأمر بالمرأة، يصبح الجميع قساوسة. تداخل مروع بين الدعارة والمافيات والجماعات المسلحة ورجال السياسة والمصارف ولا تعرف الرأس من الذيل في أخطبوط يتضخم».

قلت معقباً:

« الوضع أشبه بحجرة ضخمة تدحرجت من قمة جبل ولا يوقفها غير الارتطام الأخير في الحضيض أو موت سائق قطار مندفع «.

قال العقيد حازم:

«كل ما يمكن ان نفعله هو تحويل الجريمة الصامتة الى علنية وهو كل ما يخافه هؤلاء بحجة الستر العنوان الملون للتغطية»

تذكرت قول الشاعر إميلي ديكنسون:

« لو إستطعت ترميم قلب انسان واحد من التصدع، فسوف يكون لحياتي معنى».

قلت على غير توقع:

« خلال المنفى تعرفت على نساء من مدن مختلفة من بغداد الى البصرة والناصرية وبدت لي الصورة قاتمة حقاً بوجوه مختلفة ولا تمضي في اتجاه واحد. هناك صنف من النساء لا يمكن وصفهن بغير كلمة وحوش بشرية نرجسية خفية وسيكوباتية بأقنعة رقيقة وتهذيب جم في الظاهر وتطرح نفسها كضحية وضع ومن عشاق شكسبير وهمنغواي ومحمود درويش وتحلم بالحرية والسفر والحداثة وقلب المجتمع، لكنك مع الوقت تكتشف أنك على مقربة من فخ مع سيكوباتية أو نرجسية خفية الوجه الأخطر للشيطان. كانت لي تجربة مع امرأة من بغداد منتصف الثلاثين ومتزوجة اتضح لي بعد عامين من علاقة معها بسبب المنفى والحنين والعزلة والحاجة الى مناخ عراقي وحوار مقطوع لسنوات، وكانت تعرف ذلك ودرست حالتي بدقة، انها تعاني من ثالوث الظلام: سيكوباتية ونرجسية خفية وميكافيلية، متلاعبة، وعلاقاتها مع نماذج مختارة كشاحن وتموين لفراغها الداخلي وتفتقر للضمير والعاطفة لكن المصيدة طرح نفسها ضحية زوج ظلامي، تدعي الولع بالشعر ظهر انه انتحال وغالبا ما ترسل لي قصائد الشاعر اللبناني الأصل المكسيكي خايمي سابيس ومن دون شك تصلها من شعراء زبائن وتمررها الي كخيارات شخصية تبهرني حقاً ودائمة التهديد بالانتحار لحجزي في موقع المشفق والحل وعديم المشاعر لو تخليت عنها.

تجربة أخرى مع فتاة طالبة في قسم علم النفس دخلت عليّ من باب

محمود درويش وحلم ان تصبح روائية وتدعي أيضا ضحية أب متسلط رغم انه أستاذ جامعي وعضو في جماعة اسلامية، ولأنها حمقاء، تعتقد أن المثقف المنفي لا تهمه القيم والمبادئ لأنه يعيش في» الغرب الاباحي»، راحت تشرح لي بالتفصيل الممل كيف تمارس الجنس مع اختها ومحاولاتها مع شقيقها الحشاش في وصف تشريحي من الملامسة الى القذف، ولأنها خبيرة بهذه الشرائح، تظاهرتُ انني مغفل لكي اصطاد مغفلاً، ومن خلالها دخلت في المجتمع من أسفل ، القاع الضحل، مما لا يمكن كتابته او حتى الكلام به بصوت مرتفع، تقضي الوقت في استعراض اوقاتها الجنسية مع عشاقها كل ليلة وفي كل أسبوع عشيق جديد مع كل التفاصيل. في أيام الحجر بسبب وباء الكورونا كنت مستمتعاً ومستغرباً في الوقت نفسه. تنهي المحادثة للصلاة او الإفطار في رمضان لأنها صائمة وتستعرض أسماء الذين لم يصوموا باستنكار. كانت أقبح وجه بشري يقع بصري عليه تتخفى تحت صور مستعارة لنساء جميلات، لا هي ذكر ولا أنثى، حاولت سؤالها اذا كانت هذه صور شقيقها لان الوجه ذكوري ومنفر، لكني تريثت لكي لا اجرحها، في النهاية سحبت نفسي وقد جنّتْ. في آخر حوار بالكلمات قالت أنت شخص مزور وزعيم عصابة مافيا واسمك غير حقيقي وتكتب عن الحرب كرصاص وجثث وحرائق لأنها تعتقد أن ساحة الحرب كسرير، رفع أفخاذ وزنا المحارم. ختمت حوارها بانها ستنتحر الليلة» مخدرة» فعرفت أنها تحت تأثير عقار أو حشيش والتهديد بالانتحار يظهر كل مرة وكنت اعرف انه الانتحار

الاستعراضي. حكايتها المروعة تكفي لكتابة رواية جنسية فاضحة بنسخة باهتة بلا شاعرية ولا رهافة ولا جمال راسبوتين او كازانوفا لكنها ليست حكاية شخصية».

علقت فريدة:

« قرأت رواية كازانوفا في بولزانو تاليف ساندرو ماراي ونساء كازانوفا لواسيني الاعرج ولم اعثر لك على نسخة ورقية في شارع المتنبي من رواية اندرو ميللر عن كازانوفا ".

قال العقيد، ضاحكاً:

«هذه هي المعايير اليوم: حرامي يعاتب المسروق وزانية محارم وحشاشة ومتهتكة تتحدث عن الشرف وخائنة كل المبادئ وتحاضر في الفضيلة. ما يحدث في السياسة هو الأمر نفسه».

لم يفاجأ العقيد ولا فريدة بهذه التفاصيل كما لو انها لا شيء أمام وقائع أكثر بشاعةً وانحرافاً، كما لو أنني كنت أحكي قصة سندريلا والحذاء والامير أو ليلى والذئب، لذلك شعرت بخيبة من يبيع الماء في حارة السقائين أو من يبيع الفحم في نيوكاسيل المشتهرة بالفحم وكنت أعتقد أن هذه التفاصيل صادمة لأني قادم من مناخ مختلف، وظهر أن وقائعي التي أرقتني طويلاً هي عملة منتهية الصلاحية كعملة أصحاب الكهف أو دكان رقع الأحذية في بلدة حفاة.

من خلال مقابلاتنا مع العقيد تبين لنا ان جهاز الشرطة في الوقت الذي تمكن من الكشف عن حالات قتل كثيرة منتحلة حالة انتحار لكن افراداً فيه تورطوا في هذه الجرائم من خلال التواطئ مع القاتل الحقيقي بسبب القرابة او المال وتكييف التحقيق الاولي على ان الحادث انتحار وكذلك تورط كبار ضباط الشرطة والجيش وقادة الجماعات المسلحة وزعماء العشائر وبعض رجال الدين لذلك تقع المرأة في شبكة علاقات معقدة وخانقة وتكون في حلقة مسرح روماني عارية أمام الأسود لا تمتلك غير الاظافر وفي الغالب لا شيء.

قالت فريدة من بين شفاه مزمومة:

« نحن أمام اغتيال منهجي منظم حتى لو ظهر عشوائيا».

علقتُ:

« هذا ما أشر اليه الفيلم الفرنسي الوثائقي:العراق:تدمير أمة **Irak destruction d'une Nation** للمخرج الفرنسي جون بيير كانيه في أربع حلقات «.

قالت فريدة:

«عام ٦٣ انقلاب على الزعيم تلاه انقلاب تشرين الثاني في العام نفسه من قبل عبد السلام عارف. سلسلة انقلابات فاشلة في الستينات. عام ٦٨ انقلاب على عارف الثاني.عام ٧٣ حرب أكتوبر

مع إسرائيل. عام ٧٤ ـ ٧٥ حرب مع الأكراد. كل حقبة السبعينيات صعود دكتاتورية بربرية بصمت كزحف كأفعى العشب. عام ٨٠ حرب مع إيران وثماني سنوات حرب عبثية. عام ٩٠ غزو الكويت. من عام ٩٠ ـ ٢٠٠٣ حصار اقتصادي دمر النسيج الاجتماعي. عام ٢٠٠٣ الاحتلال والإرهاب والفساد والفوضى والسلاح المنفلت. كيف يمكن توقع حياة طبيعية تحت هذه الظروف الوحشية مع دكتاتور معتوه حارب بالجنود هؤلاء أنفسهم في كل الحروب كما لو آلات في عز الشباب وبتر نموهم الطبيعي».

أضاف العقيد وهو يعصر أصابعه:

« من الغريب أنه قال في المحكمة إن الطبيعة تساعد على الجريمة، لذلك أمر بتجريف بساتين وحقول في الدجيل والبصرة. حتى الطبيعة من منظور مشوه تحولت الى عدو مع ان العراقي عبر العصور لم يعرف الجوع وعاش بنخلة وعنزة ودجاجة وساقية».

كانت الشمس المحرقة تلوح عبر الواجهة الزجاجية للمقهى وقد ارتفع وهجها وحرارتها مع تقدم النهار وفي وجوه ومشي المارة ولم نعرف بعد ما هو برنامج العقيد لذلك قلت:

« الآن، هل هناك ما نفعله اليوم؟».

نظر إليّ العقيد بإستغراب كما لو ان كل تلك الحوادث التي كشف عنها اليوم ليست عملاً، وكل المهمة الاطلاع على الحقيقة، لكي تكتب

فريدة تقريرها النهائي الى المنظمة الحقوقية، لكن العقيد رغم انه لم يصرح بذلك لا يعلق على تقريرها أهمية، لأنه كما قال» شبع» من التقارير، لكنه يعلق أهمية خاصة على ما سأكتبه أنا من كتاب وثائقي أو رواية ذات أثر واضح في تحريك الرأي العام نحو جرائم قتل تحولت الى روتين ونمط بلا أي اهتمام. قال العقيد بإبتسامة واسعة:

« نعم، هناك برنامج لكنه يتطلب المخاطرة «.

قفزت فريدة قليلاً مستثارة وقالت:

« ما هو حضرة العقيد؟».

« الذهاب الى حي البتاويين القريب من هنا للاطلاع المباشر على بؤر الدعارة ورؤية السياسيين مع الحمايات خلال حراسة أسيادهم وهم يؤدون «واجب» المتعة في الليل مع نساء من دول مختلفة بعد ان تحولت بغداد الى عاصمة للمافيات وغسل الاموال وشركات النفط والعصابات في نظام سياسي موزع على أطرف أقل كفاءة من المافيات العالمية».

قالت فريدة ساخرة:

« لا علاج لهؤلاء غير المافيا الايطالية لتنقذنا منهم».

ضحك العقيد قائلاً:

« لا نحتاج الى ذلك لان مافياتنا المحلية تعمل بسرعة مذهلة في دولة بلا قانون ومن يكشف عن جريمة سرقة مال عام أو صفقات مالية

يتهم بالإخلال بالقانون والحشمة أو مطاردة اعلامي شريف بحجة خدش الحياء كما لو أن الحياء بهذه الشفافية تخدشه كلمات أو صور وليس الواقع المتداعي».

تذكرت روبيرتو سافيانو والحظ العاثر او الصدفة التي دفعت هذا الروائي الايطالي للعمل في شركة تبين له فيما بعد انها شركة تابعة لمافيا غومورا ـ تعني: الحماية ـ الايطالية من أشهر عائلات المافيا الصقلية.

حدث ذلك خلال تحميل صناديق في ميناء في رافعة عندما انفتحت الصناديق لتتساقط الجثث فوقه هياكل عظمية،التي كانت مرسلة الى مراكز متخصصة طبية أو غيرها، منذ تلك اللحظة تغير مصير سافيانو وحددت المافيا موعداً لقتله بعد ان نشر غسيلها في رواية غومورا، وهو تحت تهديد المافيا،مما جعل الدولة تفرض عليه العيش في قبو سري تحت الارض، بحماية أمنية مشددة مرافقة، ومنذ أعوام وهو يعيش تحت التهديد، رغم كل الاجراءات الامنية لكنه يقول عن خبرة مع كامورا نابولي إنهم يستطيعون الوصول اليه في أي وقت، ولو كان في ثقب الأرض لكنهم يريدون تشويه صورته كرجل معتوه لاسقاطه في نظر العامة ثم قتله وحسب قوله:

« يريدون أن يهدأ الوضع وتقع احداث تشغل الناس لكي ينفذوا اليَّ».

الارجح ان سفيانو يحيل من خلال العنوان الى سدوم وعمورة التي

خُسفت بها الأرض لفسادها، وقبل سافيانو ما حل بالصحفية الإيرلندية الاستقصائية فيرونيكا غورين التي عرت المافيا الإيرلندية فتم قتلها.

الغاماريون العراقيون في مئات العوائل السياسية والدينية والقبلية، تتحكم بالاقتصاد والسياسة والاعلام والمال والنفط والشركات وتاريخ حافل بالاغتيالات وتتواجد في الأحياء الفقيرة، والنهب المنظم، وبعد مدن الرفاق جاءت مدن السادة. بتعبير ميلان كونديرا بعد التحولات السياسية في تشيكوسلوفاكيا:

« نحن في زمن حلّ النصابون فيه محل الرفاق وحلّت البلاهة التجارية محل الايديولوجيا».

لم نرد على اقتراح العقيد لان فكرة الذهاب الى أوكار الدعارة غير مجدية في زمن الدعارة السياسية كما ان ذلك لا يدخل في مهمة التحقيق في حوادث انتحار النساء المريبة ومن غير الممكن اخذ فريدة الى مكان كهذا يكون خطيرا في الليل حيث ينتشر الحشاشون والمتسولون والمرضى النفسانيون وعصابات السرقة دون ان نخرج بشيء ذي قيمة رغم ان المكان لا يبعد سوى دقائق مشي ويمكن رؤيته من المقهى والشقة.

تململ العقيد قليلاً قبل أن يقول:

« أرجو أن تكونا حذرين خلال هذه المهمة لأن هناك جهات كثيرة ليست من مصلحتها البحث عن هذه الحوادث لأنها متداخلة مع بعضها تداخل أنياب الكلب وانفجار لغم يؤدي الى انفجار شبكة».

قلت:

«نحن نعرف ذلك وقد يكون مصيري أسوأ من مصير روبرتو سافيانو».

الكتب كالتجارب ووجبات الطعام، عندما تُهضم تصبح جزءاً من النسيج العضوي للإنسان ولا يعرف كيف يؤثر فيه هذا الكتاب أو تلك المادة من الأطعمة والأسد في النهاية مجموعة خراف بتعبير الشاعر ت. س، إليوت شاعر الأرض الخراب، ونحن نتاج تجارب وكتب وأطعمة وأحلام وكوابيس وطموحات وذكريات.

شرحت بالتفصيل من هو سافيانو وعن غامورا الايطالية الفاسدة مع اننا اليوم في سدوم وعمورة الأسوأ بحيث يكون فيلم «سدوم وعمورة»محتشماً أمام سدومنا الجديدة للمخرج الامريكي روبيرت ألدريتش الذي صوره المخرج الايطالي الكبير سيرجيو ليوني. نحن في هذه المتاهة نضيع بين ركام جثث النفايات أو نتحول الى طعام للكلاب وتلفق لنا تهم تمشي في مجتمع لا يفحص ولا يدقق ولا يسأل وبلا حاجة لشهادة المتهم ولا شهود ولا محكمة أو تحت أي ظروف تمت ولا محامين ولا قاعة ولا قرار ولا أدلة ولا شرطي في الباب: الكل يتحول الى قضاة وخبراء تحقيقات جنائية وأطباء نفس والمجرم الوحيد هو الضحية.

قلت لحسم موضوع زيارة أوكار الدعارة:

« حصلنا اليوم على أكثر مما نتوقع منك ومن الافضل أن نقضي

سهرتنا معك في أي مكان مريح تختاره شرط ألا ينتهي بمكب نفايات».

ضحكنا في هذا الجو الرمادي وانتبهت الى أن خلفي زبائن في المقهى. لكن العقيد كشرطي تحريات عريق فطن لذلك وقال بابتسامة عريضة:

« لا تقلق، هؤلاء ليس عندهم الوعي الثقافي لفهم ما كنا نتحدث عنه».

علقت فريدة، ضاحكةً:

« صار التخلف الثقافي أحيانا مفيداً».

قال العقيد وهو يتأهب النهوض:

« سأختار مكاناً مريحاً وأتصل بكما في المساء».

نهض على مراحل. نصف قيام. وضع يده على الطاولة وهو يتحدث بسرور. استقام وانسحب لكي لا نشعر بثقل الجلسة. علقت فريدة:

« نهوض شاعري. والآن ما سنفعل؟».

« سأنهي الحجز في فندق قصر سيوان وأحمل حقيبتي الى مكان آخر».

قاطعتني:

« يمكنك نقلها الى شقتي لأنها أكثر أماناً لك وسأكون مطمئنة أكثر. رغم أن العقيد ضمانة لكن لا شيء مضموناً هنا اليوم».

« ألا يكون ذلك مقلقاً لك؟»

« لا تقلق، لقد جهزت عقد زواج حقيقي من محكمة شرعية بشهود حقيقين ومصدق عليه من كاتب عدل حقيقي وقاضي حقيقي وعلاقة حقيقية باسمك الحقيقي كزعيم مافيا كما قالت لك زانية المحارم واقلام الرصاص، لان الكلمة عقد شرف باستثناء ان العقد مزور بلا حضورك، وهذه نسختك لكي تكون مستعداً لحالة طارئة».

« ملعونة عجوز البدو».

« سأذهب لرؤية أمي وأعود في المساء وهذا مفتاح الشقة بشرط إلا تستمني على ثيابي الداخلية في الحمام».

ضحكتُ بعمق.

* * *

تفريغ الحقد

منزعجة بسبب حملة قوى امنية على قتل كلاب وجراء داخل حرم مبنى كلية البيطرة وتقول إن الكلاب ملقحة وكانت تطوف كل يوم على كلاب الشوارع المختفية من الخوف وشمس الظهيرة ولاهثة من العطش بالطعام والماء وسط دهشة المارين كما لو انها تقوم بعمل منحرف:

« قتلوا الكلبة بوسي الجميلة ملقحة ولطيفة ومعها كلاب أخرى مرمية في المكان نفسه بلا دفن للصحة في الأقل وحدث القتل خلال لعب الطلاب مع الكلاب في ساعة مرح».

وأضافت وهي ترمي جسدها فوق الكرسي في الشقة:

« هذه حملة في عموم البلاد».

التزمت الصمت بلا رضا عن نفسي لكني لم أجد ما أقول. كان الزمن شاحبا لا يرشح منه غير ذلك. خلال الحرب مع إيران قرر

النظام منح مكافأة مالية لكل من يقبض أو يقتل كلباً للإشغال والالهاء والاذلال بذريعة الصحة. خلال الاحتلال السوفيتي لبراغ عام ١٩٦٨ يذكر ميلان كونديرا، ولسحب موجة الغضب من الاحتلال، توجهت وسائل الاعلام الرسمية نحو حملة لقتل الكلاب بذريعة الصحة والنظام والنظافة كما لو أن الاحتلال عملية تنظيف، لتفريغ الحقد وبعد مرور سنة انصب الحقد على الناس.

رغم مشاعر فريدة الصادقة، لكن هذا التعاطف منقذ من الوقوع في الفراغ واللجة والهاوية. في مثل أزمنة الغرق يحتاج البعض إلى شيء للتمسك به أو الانحدار مع التيار أو العزلة أو ما هو أسوأ: المرض أو السقوط. يلوح «الناجون» من السقوط كحفنة مجانين أو في الأقل: مرضى.

رغم كل العواصف والمتاعب والمشاكل الخاصة والعامة، لكنها لا تكف ولا تمل من البحث عن الكلاب الجائعة والمريضة وكذلك القطط والطيور وباقي الحيوانات ومن مصروفها تشتري الطعام وتطوف في الشوارع على الحيوانات، كما لو انها خارج الانقاض والتشوهات قادمة من السراب حيث لا نتوقع علامة أو ضوء أو هتاف أو جوقة أطفال منشدين.تطعم وتضمد وتحمي وأحزاب تتصارع على الاسلاب ومجتمع يتداعى، تكدست أمام بيتها أعداد من الكلاب والقطط الجائعة، لأن الحيوان لا يعرف الخطأ أبدا، كنت أرافقها من خلال الكتابة على الخاص

من المنفى في جولاتها وهي تنقل الطعام في حرارة الصيف وبرد الشتاء وتذكّر بشخصية الدكتور ريو في رواية كامو» الطاعون"الذي يطوف المدينة وسط الجثث والخطر والأنين للمساعدة. في هذا الانحدار المخيف هناك مساحات نظيفة ناجية.

الساعة التاسعة ليلاً كنا نحن الثلاثة في زاوية منعزلة في فندق عشتار غراند كريستال، الشيراتون سابقاً، كل الأمكنة تحمل اسم «سابقاً»، حتى الأدوار البشرية انقلبت ومن كان ضحية صار جلاداً للتعويض عن ذل معتق، في شارع السعدون المؤلف من عشرين طابقاً يطل على الشارع وعلى نهر دجلة في لارسا كوفيه**Larsa cafe** في جو شاعري هادئ يلوح كملصق خارج الواقع المخفي.

ترددي المستمر على صالات الروليت في فنادق بغداد الكبرى قد يعرضني لمخاطر جدية وهي الأكثر تعقيداً وخطراً من المافيا الإيطالية المحترفة التي لا تحتاج الى تبجح واستعراض بأعمال عدوانية لتاريخها الطويل عكس المافيا العراقية الخليط من أولاد شوارع وأنذال وأشقياء شوارع بلا أي تعليم أو ثقافة بل مخلوقات تائهة تبحث عن هوية في عصابة او جماعة أو عن مكانة.

دخلنا فندق عشتار كريستال، الشيراتون، في شارع السعدون وهو أول من فتح صالة قمار روليت في بغداد، راح العقيد يشرح لنا بصوت هادئ مجرب تفاصيل جديدة، جلسنا في في ركن منزو فريدة والعقيد وأنا،

في كافتيريا. قال:

« وصل عدد الصالات مرةً الى أكثر من ثلاثين صالة في منطقة الكرادة والفنادق الكبرى كعشتار والمنصور وفلسطين وبغداد، انتشرت الى فنادق الدرجة الثانية والثالثة، تحولت بعض تلك الصالات الى أماكن لغسل الأموال والدعارة والمخدرات وظهور موجة غريبة من العرابين وزعماء المافيا من غير الفنادق المذكورة هناك أخرى: فندق سبع، إيدال، فندق البجعة في الرصافة، صالة واحدة في جانب الكرخ هي صالة القبة،بعض تلك الصالات تدار من عراقيين مثل حمزة الشمري العراب،وحسين الزهاوي الذي يدير صالة عشتار، صالة فندق بغداد ويديرها داوود شمخي خدر وفي الواقع تديرها شركة جبال الوديان بالتعاون مع أتراك، أما صالة فندق المنصور فتديرها فياكتار المسؤولة عن صالات المرديان والسحاب والنخيل، مدير هذه الصالات حمزة الشمري وحسين علي حسين».

من خبرته الطويلة مع هؤلاء واختراقهم عرف العقيد من خلال شبكة معارف ومتعاونين محليين وأجانب أن هذه الصالات تعمل تحت غطاء حكومي ومنظمات مسلحة ورجال سياسة، وشبكة غسل أموال من بغداد الى تركيا وقبرص وأكرانيا ولبنان، مع القمار تهريب النفط والدعارة وتجارة الرقيق، هذه الصالات تتحول الى قوى ضغط سياسية وأمنية وتهدد النسيج الاجتماعي بتفسخ أوسع، نظراً للتداخل بين قادة سياسيين في النظام وعصابات مسلحة يصعب تعقب جذورها أو ملاحقتها، ربما

تتعرض اجهزة الشرطة ،تحت ضغط غضب الناس، فتقوم بمداهمات شكلية لا تؤدي الى نتيجة.

قبل منتصف الليل انتقلنا الى مطعم الوركاء في الفندق على إسم المدينة التاريخية الوركاء أو أوروك للحضارة السومرية والبابلية التي كان كلكامش ملكها القريبة من مدينة النبي إبراهيم أور. اكتفيت بعشاء من الرز الاحمر والسمك المقلي والخضر ووعاء من اللبن المحلي الذي رجع بي مثل كعكة مارسيل بروست الى زمن سابق، في حين تناولت فريدة طبقا من الكباب مخلوط كما قالت من لحم البقر والنعناع والملح والكمون والسماك والفلفل والبصل المثروم واضافت له ملعقة من خل التفاح، وأما العقيد حازم فتناول طبقا كبيراً من الشاورمة ممزوج بقرنفل مطحون وبطاطا وعصير ليمون وأرغفة خبز وصدور دجاج وخل أبيض.

تلقت فريدة اتصالاً هاتفياً وتكلمت مع امرأة بصوت واضح:

« هذا اتصال من أمي وساذهب لكي ساتصل بك».

قالتها بطريقة من سيعود الى الشقة لأن العقيد لا يعرف شيئاً عن حياتنا الخاصة واحترم المسافة ولم يسأل. شكرته هي بحفاوة على أمل لقاءات قادمة. انصرفتْ وشعرتُ فجأة بوحشة طارئة رغم وجودي مع عقيد تحريات شرطة جنائية لا يهاب أحداً. افترقنا في الشارع وركب هو سيارته المرسديس بلون رمادي وفضلت المشي في الشارع او التيه في الحقيقة حتى وصلت نهاية الشارع قرب ساحة التحرير لكي يهجم

علي عطر الماضي بكل ما فيه ويبدو ان الذاكرة تقدم صورها بانتقائية حسب المشاعر.

جلست أفكر أمام مشهد فتيان يخرجون من فروع حي البتاويين قرب نصب الحرية بوجوه مغبرة منهكة لا توحي بالأمان، أطفال ليلة الغزو الذين ولدوا في الساعة الخامسة والعشرين منتصف ليلة الغزو. نحن نعرف ماذا حلّ بأطفال ولدوا في فترة الدكتاتورية وتوزعوا بين السجون والمنافي والمقابر والمشانق والحروب والامراض والعقد، لكن أين هم اليوم أطفال ليلة الغزو وقد صاروا آباءً، في الشوارع أم في المدارس أم في المقابر أم في السجون أم صاروا عرابين في كازينو قمار ومخدرات وعصابات؟ كيف نتوقع ولادة جيل ولد تحت القصف والكراهية والانتقام ومشاعر الثأر؟ ماذا يعرف هذا الجيل المبتور الذاكرة عن الماضي القريب أو البعيد إذا كنا نحن عرفنا؟

خمسة ملايين طفل تركوا التعليم أيام «الحصار» في تسعينات القرن الماضي وتضاعف العدد الآن مع فوضى السلاح والمخدرات، فكيف سيكون شكل المستقبل ونحن بلا دولة حقيقية ولا مراكز ابحاث المستقبل للتحسب والتوقع قبل فوات الأوان؟

هؤلاء سيفعلون كما فعل صدام حسين الذي خرج لنا من الشوارع الخلفية والتشرد واليتم جريح الأسرة والثقافة والمجتمع ووجد نظرية سياسية حارة وخبأ عقده وأمراضه خلفها وانتقم من الجميع في تعويض

سادي وتوحش لم يشبع غليله حتى في المحكمة وهو يصدر أوامر القتل على قاضي لجنة الدفاع بالاشارات وقد تحقق فعلاً.

أطفال منتصف الليل، ليلة الغزو، الملايين سيجدون حزباً أو يؤسسونه بالشعارات القديمة عن الاشتراكية والديمقراطية والعدالة ويثأرون لطفولتهم كما فعل طفل التاريخ السابق، أو اندمجوا اليوم في كتل وأحزاب وعصابات للبحث عن هوية فردية تحت غطاء، صار القاتل يُصنّف حسب هوية الفرد. عندما يقوم بقتل عائلة أو سرقتها، وهي جرائم تتسع، يسمى بالمجرم، وعندنا يفتح بندقيته على جمهور ساخط ومحتج يسمى بـ» عقائدي» مع أن الشخص نفسه. هذا الذئب الذي ولد من الحطام والذل والحرب، هذا الجيل سيلتهم يوماً الجميع ونفسه، سيأتي يوم سبع الليل من يمد بوزه من الباب ويبقى سالماً أو يبقى عقاله على رأسه من جيل عنده لحية الشيخ مكنسة بعد أن عاش كل أنواع القهر والضيم والهتك والتوحش المنظم.

كنت أنتظر مكالمة هاتفية من فريدة وجلست على الرصيف مقابل جامع الأورفلي وخلفي مبنى مكتبة التحرير ومؤسسها بنّاي جار الله، لكني سمعت من الخلف صوتاً إنثوياً هادئاً يقول بعامية عراقية حارة وشهية مفعمة بحنان مفقود لسنوات:

« ما تجوز من سوالفك؟ مرة سافيانو ومرة روبرت جاردن لهمنغواي،

وفي الثالثة ستكون آل باتشينو، يسحرك دائماً عالم الأطفال في زمن

وغد».

حاولت ضمها، فرحاً، لكن توقف سيارة شرطة حال دون ذلك.

لا مكان للاختباء

قلت وأنا أفتح الستائر في الصباح على الشارع عندما كانت فريدة تحاول ترتيب المكتب ويظهر على شماعة الملابس الروب الأسود الذي يرتديه المحامون خلال المرافعة في المحاكم كلون يمثل المساواة امام العدالة:

« قد لا تنتهي الامور على خير».

نظرت الي بتركيز:

« هل تشعر بتهديد؟»

« نعم، أشعر برسائل من أعماقي توحي بذلك. اليك حصيلة تقرير من العقيد حازم في ملف ليلة أمس».

* * *

٢٦ آب ٢٠٢١

«كانت نور الهدى عبد الصاحب الشابة الحسناء قد أنهت عملها في مطعم في الجادرية قرب المجمع الرئاسي. قام سائق المطعم بنقلها الى منطقة سكنها في الدورة شارع ٦٦ وعند الوصول الى شارع أبو نؤاس طلبت من السائق التوقف وترجلت معه للتنزه في حدائق الشارع. بعد ساعة ترجل ثلاثة أشخاص بالكمامات وأطلقوا النار على السائق الذي فر من المكان وهربوا. عاد السائق الى الفتاة وشاهدها مطعونة بطعنات تنزف في أماكن متفرقة من جسدها. قام بنقلها الى المستشفى لكنها فارقت الحياة».

«مصدر أمني: معظم حالات «انتحار» الفتيات في البصرة هي جرائم قتل.

December ١٤, ٢٠٢٠.

أكد مصدر أمني في محافظة البصرة، اليوم الاثنين، أن معظم الحالات التي تعلن على كونها «عملية انتحار» هي في حقيقة الأمر جرائم قتل تستهدف تلك الفتيات من قبل ذويهن، وغالباً ما تكون تحت عنوان

جرائم شرف. أوضح المصدر: أن «المجتمع في محافظة البصرة يحمل الطابع العشائري القبلي وهو ما يمنع إقامة الفتيات لأي علاقة مع الشباب مطلقاً سواء كانت علاقة عاطفية أو مجرد علاقة صداقة فقط، وعندما يكتشف الأهل تلك العلاقة يعدون أنها قد مست شرف العائلة ويحكم على تلك الفتاة بالقتل. كثير من الأهالي يلجؤون إلى الادعاء بأن ابنتهم قد انتحرت، ولكنهم في واقع الأمر قتلوها وجعلوا مسرح الجريمة يظهر وكأنه حالة انتحار، والأجهزة الأمنية تتعرض للضغوط العشائرية وتقدم لها الأموال بهدف تسجيل الحالة على أنها انتحار وعدم فتح تحقيق لمعرفة حقيقة تلك الحالة ومحاسبة الجناة في حال ثبت أنها جريمة قتل».

قالت الأمم المتحدة، في بيان على موقعها الرسمي، إن الانتحار في العراق أمر لا يمكن تجاهله، وسيستمر في إلحاق خسائر كبيرة بالأفراد والمجتمعات في حال لم يتم التصدي له».

قلت:

"هذا يعني وفاة واحدة وثلاث محاولات انتحار يومياً».

وهي تلتفت اليّ، قرأت علامات قلق واضحة من تلك النظرة الحادة وندمت على كشف مخاوفي لكن يجب أن نكون مستعدين للحالات الطارئة. الخوف لا يتناقض مع الشجاعة بل يختلف عنه والشجاعة هي خوف تم التحرر منه بالتحسب واليقظة لاننا نتجول ونعمل في أمكنة مقلقة ومخيفة ولا يمكن النوم فوق ظهور التماسيح ولست مستعداً لخسارة

فريدة بعد تلك الخسارات الفادحة التي لم أكن فيها سوى ضحية ولست مسؤولاً. حاولت تلطيف الجو بالاقتراب منها والاتكاء على كتفها الحار وشعرت بنهدها اللدن يتحرك تحت صدري كماء دافئ ورفعت حنكها بطرف إصبعي كزهرة تتفتح بين جدران متهدمة على ضوء النهار. قلت بصوت فشلت في أن يكون متماسكاً:

« أنت تعرفين أنني غير مستعد لخسارات اضافية وكل ما أحلم به كل هذه الاعوام العثور على قبرها «.

بحثت في حاسوب السيارة عن قصيدة فيكتور هيغو بصوت عربي مع الموسيقى:

«غداً عندَ الفجرِ، حينما تبيَّض الحقول،

سأنطلقُ. أترين، أعلمُ أنكِ في انتظاري.

سأذهبُ عبرَ الغاباتِ، سأذهبُ عبر الجَبل.

فأنا لمْ أعُد أُطيقُ البقاءَ بعيداً عنكِ.

سأمشي وعينايَ مثبتتانِ على أفكاري

دونَ النظرِ إلى أيِّ شيءٍ في الخارج، ودونَ سماعِ أيِّ ضجيج

وحيداً، مجهولاً، منحنيَ الظهرِ، معقودَ الذراعينْ،

حزيناً. وسيكونُ النهارُ لي مثلَ الليل.

لن أنظرَ إلى ذَهَبِ المساءِ المتساقط،

ولا إلى أشرعة القوارب المبحرة إلى هارفلير،

وعندما أصل، سأضعُ على قبرِكِ

باقةً من الزهورِ البهشية الخضراء وزهور الخَلَج المتفتّحة».

قالت بصوت متحشرج:

« أعرف ذلك بدقة. يسرى بالطبع. لست محظوظاً».

« لا يتعلق الأمر بالحظ بل الحياة في شبكة علاقات خاطئة تنتج كل المواقف السيئة. نحن في مناخ الخطأ. كمحامية سريالية تعرفين ذلك.».

« كيف كانت أحلام إيغوشي الليلة الماضية؟»

« حلم مكرر: كلما صعدت درجات السلم، تدحرجت للأسفل».

« أفهم. الخطأ في طريقة الصعود وليس في السلم».

قلت وقد تراجعت للوراء قليلاً:

« سواء كان هذا أم ذاك، فاللعنة حلّت. هل قلت لك من قبل إنك آخر النساء؟».

كانت تمسد اصابعها اليسري باليد الأخرى، عندما رن جرس الباب، تحفزت لأن هذا يحدث لأول مرة في حضوري. تراجعت الى الكرسي قرب

جبال قنديل في الزاوية بمظهر رجل صارم يطالع ملفاً. كيف يمكن لجرس باب أن يطلق كل هذه الاحاسيس المقلقة؟

لم يلح أي قلق على وجه فريدة. مسحت يديها بمنشفة صغيرة ورمتها بلا تركيز وسقطت على السجادة وفتحت الباب.

« عفواً، هل هذه عيادة الدكتور...؟»

« ألم تقرأ مكتب المحامية...؟»

« أنا لا أقرأ. آسف».

عادت بوجه مكفهر:

« يبحث عن عيادة طبيب وهو لا يقرأ مع انه شاب في حوالي منتصف العشرين وبلا شك ولد قبل الاحتلال بثلاث أو أربع سنوات».

« جيل الذئاب التي ستفترسنا جميعاً. هل أنت متأكدة أنه يبحث عن طبيب أم جاء ليستطلع هل من أحد في الشقة؟»

« قد يكون ذلك لكنه لن يعثر على شيء سوى ملابس داخلية معلقة في الحمام رمز الشرف الرفيع لكي يستمني عليها وينسى الاحتلال الامريكي المستمر بإثنتي عشرة قاعدة عسكرية بحجة المساعدة في التدريب ومكافحة الارهاب».

« في النظام السابق تدربت أجيال من الجيوش على يد عرفاء أميين».

رن هاتف فريدة وحاولتْ تجاهله لكنه تكرر مرات مما اضطرها لرفعه وأصغت على وضع مكبر الصوت وكان صوت امرأة:

« هل أتحدث مع المحامية...؟»

« أنت معها».

« أنا زوجة العقيد حازم ويؤسفني القول إنه يرقد في المستشفى بعد تعرضه لاطلاق نار منتصف ليلة البارحة «.

« أية مستشفى؟».

« مدينة الطب في باب المعظم. صالة العمليات».

« أعرف أين تقع المستشفى. كيف حاله الآن؟».

« لم يسمح لي بالدخول لكنه قال لهم أن أتصل بك».

« طيب، شكراً، سأكون هناك الآن».

والتفتت إليّ:

« مخاوفك في محلها. لنذهب الآن».

«كان تحت المراقبة من جهة ما »

لم تعلق فريدة.

* * *

حفلة التيس في المطعم التركي

في الشارع كانت سيارة فريدة السوداء من نوع فولفو XC90 الدفع الرباعي مركونة مع صف من السيارات. في جو صيفي كانت السيارة تخترق شارع السعدون وتلتف حول ساحة التحرير. كان المطعم التركي بطوابقه يلوح مهجوراً بعد مظاهرت تشرين الاول ٢٠١٩ عندما أسقط قناصون مختفون مئات القتلى العزل، أكثر من ٥ آلاف ضحية والاف الجرحى لم تحدث مثلها حتى في كومونة باريس، في انحاء العراق لم تسفر سوى عن استقالة رئيس وزراء تنقل بين تروتسكي وميشيل عفلق وانتهى كاسلاموي والاتيان برئيس وزراء جاسوس ودمية، وهناك من يؤكد أن كثيراً من حالات القتل من قناصين ملثمين من الحرس الرئاسي يختفون فوق سطوح عمارة في ساحة الخلاني مما دفع الرئيس الى الهروب بطائرة الى السليمانية حتى تتوضح الامور.

كانت تُسمع تلك الايام شتائم متبادلة بين أولاد المتعة الى أولاد

الرفاق ومن عملاء صدام الى عملاء المنتفجي عشيرة رئيس الوزراء، ومن عملاء السفارة الى عملاء إيران والخليج وتركيا، للمرة الأولى لم يُذكر عملاء موسكو. كان جو بغداد مكفهراً، متاريس وحرائق وقنابل غاز وسيارات أسعاف، وصراخ وهياج، أخبار المظاهرات على شاشات العالم. عندما انتهت النتيجة برئيس وزراء مأجور وأبله، تيقنتُ أن كل شيء كان مدبراً. ادارة الازمة لا حلها كما لو أننا في مشهد من رواية» حفلة التيس»لماريا فارغاس يوسا عن الجنرال رافائيل تريخو دكتاتور الدومنيكان الذي اغتالته المخابرات الامريكية لعجزه عن ضبط الاوضاع مع انه عميل ذليل للسي إي أيه الذي كان ينهي اجتماع مجلس الوزراء بسبب نوبة من سلسه البولي ويروي في مجلس الامن القومي للقادة مواعيد الدورة الشهرية لزوجاتهم بدقة مجهرية.

مدخل شارع الرشيد، جسر الجمهورية، مكان مقهى البرازيلية المعروفة سابقاً بالواجهة الزجاجية الزرقاء الشفافة المطلة على شارع الرشيد وقهوة الاكسبريس الجاهزة، المقهى الوحيد الذي كان يستقبل الرجال والنساء وتأسس في اربعينيات القرن الماضي وكان ملتقي النخبة الادبية والثقافية من بدر شاكر السياب وفؤاد التكرلي وحسين مردان وجبرا ابراهيم جبرا الى الشاعر عبد الوهاب البياتي والروائي غائب طعمة فرمان والفنان فائق حسن وحتى زعماء كآخر رئيس وزراء ملكي نوري السعيد وعبد الكريم قاسم أول رئيس جمهورية، هؤلاء جميعاً توزعوا بين المنافي أو القتل بما في ذلك المقهى والشارع والجسر الذي قصف خلال

الغزو. من الواضح الآن أن جزءاً من المقهى تحول الى محل لبيع الادوات الاحتياطية ومطافئ الحريق. هذه نصوص وليست أمكنة. خراب الأمكنة والبشر.

لم تكن سيارة الفولفو السوداء تخترق شارع الرشيد الان بل تخترق تاريخاً. شارع الرشيد وكان يعرف باسم شارع خليل باشا جاده ستي على اسم خليل باشا حاكم بغداد العثماني وتاسس عام ١٩١٠ واطلق عليه البريطانيون شارع هندنبيرغ، لكن العراقيين أطلقوا عليه» الشارع الشاهد» للمظاهرات الصاخبة والمواجهات السياسية وفي الشارع نفسه تعرض الزعيم عبد الكريم قاسم لمحاولة اغتيال عام ١٩٥٩ شارك فيها صدام حسين وقُتل في المحاولة عبد الوهاب الغريري وفي الزمن السابق سميت الساحة باسم الغريري مع تمثال له لكن التمثال هُدم بعد ٢٠٠٣ وسميت الساحة بساحة عبد الكريم قاسم. بناية مصرف الرافدين تصميم المعماري الإنكليزي فيليب هيرست منتصف القرن الماضي، يذكّر برواية أجاثا كريستي» موعد في بغداد» حيث تكون بداية التخطيط لمؤامرة لإفشال مؤتمر الدول الكبرى نهاية الحرب العالمية الثانية من قبل منظمة سرية. واضح ان قصة المؤامرات في بغداد قديمة.

جسور وأسواق ومحلات ومطابع قديمة ومقاهي من حسن عجمي الى عزاوي والبلدية والمقهى السويسري للنخبة كما لو ان النخبة لا تلتقي الا تحت عنوان أجنبي ومقهى الشاهبندر في فرع شارع المتنبي ومقهى البرلمان ملتقى الادباء وميلاد القصيدة الحديثة، مقهى ام كلثوم والبيروتي

والزهاوي. كثير منها اندثرت او تحولت الى مطاعم ومن يعود الى تلك الامكنة اليوم يجد ان جزءاً من ذاكرته أزيل. مع المرور الخاطف للفولفو السوداء تمر خطفا اماكن السينمات القديمة روكسي وسنترال والزوراء التي صارت اليوم مسرحاً في حين هدمت الباقي او تحولت الى محال تجارية.

كنا صامتين في الظاهر لكننا في الواقع في ضجيج داخلي. نحن الآن جوار مقبرة باب المعظم قرب السجن المركزي، سابقاً، الذي كان مسرح احداث رواية « القلعة الخامسة» لفاضل العزاوي، وفي المقبرة دفن مؤسس الحزب الشيوعي الملقب بفهد بعد اعدامه عام ١٩٤٩ مع رفاقه. مُسح القبر بعد انقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣ على الزعيم وفي عام ١٩٧٤ اعيد ترميمه لكنه مسح ثانية وبعد عام ٢٠٠٣ أعيد بناء القبر.

نتجه الى المستشفى والى صالة عمليات حيث يرقد العقيد حازم كما لو انه أحد شخوص وشهود وشركاء وضحايا تلك المراحل كما لو اننا أمام مشاهد سينمائية صامتة بالابيض والأسود في تتابع وجوه وأحداث وأمكنة تلوح، الآن، في جو صيفي رمادي، وقد خلدها الموت.

كنا نركض في طوابق وممرات المستشفى بين طوابير المرضى والممرضات والأطباء. وصلنا قسم العمليات الطارئة وكان الدكتور أسامة محمود مقيم أقدم قسم الجراحة قد خرج تواً من الصالة بثياب العمليات وكمامات الكورونا، كانت فريدة تعرفه وسألته عن حال العقيد وقال إن الحالة

مستقرة وان رصاصة أوشكت على اختراق القلب وخرجت والعقيد الان تحت المخدر ولا يمكن الحديث معه لكن يمكن رؤيته من مسافة. والتفت الدكتور نحوي فجأة وقال:

« لا تضع كمامة كورونا؟».

« ملقح أربع مرات في الخارج».

لكنه لم يتحدث مع فريدة حول الأمر.

لم يقتنع لكن سمح لنا برؤية العقيد النائم وعلى وجهه تطوف احلام كما ينزلق ضباب فوق جدار رخامي. لم أتخيل هذا المشهد لكني توقعته لي. غادرنا الغرفة وشكرنا الدكتور ونزلنا الى الطابق الأسفل. في موقف سيارة المستشفى قال الحارس إن السيدة تركت باب السيارة مفتوحاً وفي المستشفى يتواجد افراد من عصابات السرقة. كنت قد قرأت في احد مصاعد المستشفى عبارة» احذر اللصوص» رغم حراسة المستشفى من شرطة محلية وشرطة اجرام واستخبارات، لكن اللصوص في زحام مئات المراجعين والمرضى يسرقون المرضى النائمين أو مرافقيهم وقال الحارس إنه تم مرة اختطاف الطفلة نسرين في الساعة الواحدة والنصف ليلا بعد ولادتها بيومين بتاريخ ٢١ شباط ٢٠٢١ وتجاوز كل الحواجز. لا مكان للاختباء، اذن. نحن في عالم أورولي، نسبة الى جورج أورويل، لكنه أخطر وخليط من سلطة الأب الأكبر ومن ضحايا الأمس في سلوك انتقائي قذر للضحية عندما تحاول التعويض عن ذلها المعتق باختيار ضحية عزلاء

وهو أمر يحدث في زمن العواصف السياسية والمنعطفات الحادة، حيث لا القديم يموت بل يتفسخ، ولا الجديد يولد بلغة غرامشي. عندما لا تنعطف الدولة في لحظة التحول نحو بناء المؤسسات الديمقراطية، تنهار المعايير العامة وتحل مكانها المعايير الفردية وكل فرد يحلل ويحرم حسب مصلحته، وهي علامة على انهيار قادم يكون خاتمة هذه الحكايات الشكسبيرية المرعبة والمملة.

قلت:

«كنا سنبحث عن عربة نقل يجرها حصان كشخوص رواية لدويستوفسكي فوق شوارع بطرسبورغ الحجرية».

« عندك مزاج للمرح».

« تعرفين؟ أحب وقع حوافر الخيول على أزقة حجرية. كنت كما لو سمعتها يوما في رواية « أنّا كارينا» لتولستوي وهي في عربة تجرها الخيول قبل انتحارها بلحظات وتعمد تولستوي ان يكون وقع خطوات الخيول متسارعاً كأنفاس كارينا ومع خبب الخيول تسارع ايقاع الحكي».

قالت فريدة وهي تضع يديها فوق المقود بلا حركة:

« أصبحنا إثنين حضرة روبيرتو سافيانو. من الذي أوحى لك بهذه الفكرة».

ضحكتُ وأنا أبحث في الراديو عن أغنية أو موسيقى:

« هل نسيت انه تقريرك الى المنظمة الحقوقية وأنا أتبعك ولو الى بئر للأفاعي؟».

عثرت على أغنية كاظم الساهر:

« عبرت الشط على مودك، خليتك على راسي».

عاد اللون الوردي الى وجه فريدة وادارت محرك السيارة ثم أصبحنا في الطريق الى بغداد الجديدة ثم ضاحية الفضيلية التي قبضت مفرزة من الامن العام القبض عليّ فيها منتصف الليل عام ٧٩ في الصيف وأنا في وضع شاعري أتأمل القمر، كما لو أننا في التاريخ نفسه. تأملت جانب الطريق وخرجت حسرة عميقة من صدري لسبب لا تعرفه هي ولم أتحدث عنها لأنه خيبة أخرى كجرح مفتوح ومالح. هناك حكايات كثيرة في داخلي وأخشى أن أموت قبل أن أرويها كما قال كازنتزاكي، وتروى من آخرين مشوهة. لماذا يجب أن نروي في كل نهاية؟ ربما لكي لا نختنق، لكننا نختلق أيضا بالحكي.

قلت وكانت ساهمةً:

« في هذا المكان على الجانب الأيمن، كان يقع مركز شرطة الفضيلية شرقي بغداد وفيه سجن رؤساء وزراء بعد انقلاب تموز ١٩٦٨ مثل عبد الرحمن البزاز مفكر واستاذ في القانون وعميد كلية، وطاهر يحيى رئيس وزراء مرتين وضابط شارك في حرب فلسطين ١٩٤٨ ، كان السجانون يطلبون منهما كنس السجن وغسله ثم الرقص على ايقاع النقر على

صفائح الزبالة بعد شد قطعة قماش حول الخصر كراقصة شرقية».

التفت الي فريدة وهي تستدير لتنعطف عائدة:

« تبدو مشوشاً؟».

« نعم، على الجانب الايمن ضحية أخرى من ضحايا الشرف كنت شريكاً وشاهداً وضحيةً لكنها تحتاج الى وقت هادئ لكي تروى».

صارت السيارة الفولفو السوداء الان على طريق العودة. قالت فريدة:

«من غير المعقول الحكم على شخص من قصة دون معرفة كيف تمت».

« تماما، هو ما قاله ألبير كامو: تعرفون اسمي ولكن لا تعرفون قصتي، تعرفون ما فعلت لكن لا تعرفون الظروف التي مررت بها، لذلك توقفوا عن الحكم علي وانشغلوا بأنفسكم».

« انت دائماً تعبر الشط دون أن تصل الى ضفة».

« أختنق فقط. لكننا غرقنا جميعاً ضحايا وجلادين لأننا صمتنا عن عقر الناقة».

* * *

القنطرة بعيدة

سراب الظهيرة يلوح عبر الزجاج الأمامي وتلوح الأيام كغبار طريق يتلاشى مع ماسحات الزجاج. كم أشتهي المطر الآن، مسبح أو نهر لكي أغوص، بحثت عن أغنية الكنطرة بصوت كوكب حمزة:

«حدر التراچي برد، والگَنطره بعيده،أمشي وأگَول وصلت، والگَنطره بعيده ،نگَضني مشي الدرب، تعبني مشي الدرب، والشوگَ هز الگَلب والگَنطره بعيده».

عندما وصلت الأغنية لهذا المقطع أوقفت فريدة الأغنية وأوقفت السيارة على جانب الطريق قرب مركز شرطة الرشاد وهي تنشج:

« هيمه وجحيل الوكت، ما لمني نفنوفي، لوذي إعله بعد البعد يا روحي حدر إيده، وأمشي وأگَول وصلت والگَنطره بعيده».

رن هاتف فريدة وجفلنا كما لو أنه دوي أخرجنا من الوضع، وعندما نظرتْ الى شاشة الهاتف، فتحت عينيها على وسعهما كعيون صقر في حالة قنص وانقضاض. صرختْ:

« العقيد حازم».

وضعتْ الصوت على وضع مسموع وأصغيتُ:

« أنا بخير وأفقت من التخدير ولا خطر لكني أرجو ألا يتسرب خبر علاقتنا في كل الأحوال الى الصحافة تحت مشاعر تضامن ودعم لأن الامور ستكون صعبة لكما».

« لم نفكر بهذا أبداً».

« ليس مسموحا لي بالكلام أكثر. سلامي الى سافيانو الأسمر».

توقفتُ عند عبارته» في كل الأحوال» وفسرتها حتى لو توفى، ربما لم يتجاوز مرحلة الخطر لكنه النبل في أن يكون حريصاً علينا وهو في وضع تهديد وجودي.

التفتت الي قبل ان تنطلق قائلة:

« ما الذي تحتاجه الآن؟»

« مسبح للغرق».

فتشت في هاتفها عن مسبح عمومي وقالت وهي تقرأ في عناوين:

« مسبح نور لاند هويتل على مبعدة ٢:٦ كم من بناية المسرح الوطني. مسبح فندق التاج على مسافة ٣:٩ كم من جامعة بغداد. مسبح كورال بلاسا على بعد ٤:٤ كم من جامعة بغداد. مسبح في

فندق بابلون روتانا وفيه مسبح داخلي ومسبح خارجي مع اطلالة على نهر دجلة والوضع معزز بالامن والشرطة».

ضحكتُ قائلاً:

« حتى عندما تسبح، يرافقك شرطة».

تابعت فريدة:

« مسبح فندق بغداد انترناشنال على مبعدة خمس دقائق من وسط بغداد مشيا. مسبح فندق كورال بغداد في شارع في الجادرية على مسافة ٤ كم عن المنطقة الدولية. مسبح المنصور. شارع الصالحية. ١:٦ كم من ساحة المتحف. يمكن تناول أطعمة أفريقية وأمريكية وايطالية مع توفر اطعمة للنباتيين امثالك ولعب الطاولة والبلياردو والاسكواش «.

« إذا كان هو نفسه فندق المنصور ميليا، فأتذكر مقابلة أجريتها فيه مع المغني الأمريكي دين ريد. سألته: لماذا تسجن مرات؟ أجاب ضاحكا: لأني أسرق التفاح. قُتل ريد في حادث سيارة في ألمانيا الشرقية عام ١٩٨٦.لنذهب الى هذا المسبح الذي جرت فيه جلسات المؤتمر القومي العربي الذي حضرته بعض الاحزاب العربية المنسية وكانت الكاتبة صافي ناز كاظم طليقة الشاعر احمد فؤاد نجم تغرد في المؤتمر العربي قبل الحرب الايرانية بشهور ومن الواضح انه كان تعبئة وتجهيزاً خفياً للحرب من باب خلفي».

« ما الذي لا تعرفه، إذن؟»

« أنا».

« متعدد أم متشظي؟»

« ربما المتعدد. لم لا تتحركين؟ هل علينا انتظار مطر الشتاء القادم؟ أم انفجار سيارة مفخخة؟ أم نعتقل من شرطة الرشاد المكان الوحشي لاعدام النساء الشيوعيات والاسلاميات في النظام السابق».

« المرأة تعدم تحت كل العناوين».

« وحتى الرجال. اختراع العناوين المزيفة خاصية عريقة في هذه البلاد».

قرب جدار مركز الشرطة هذا أعدمت رسمية جبر الوزني الشيوعية مديرة مدرسة في ريف كربلاء. التحقت بالانصار في الجبال عام ١٩٨١ مع زوجها محمد النهر بعد انهيار التحالف أو الفخ مع النظام. عادت خلسة الى الداخل عام ١٩٨٤ وكانت تشاهد طفلتها تلعب مع الاطفال بعمر عامين واربعة شهور وقتها دون أن تقترب منها قبل القبض عليها لأن الأطفال تحت المراقبة، لكنها لم تقاوم عاطفتها ووضعت لثاماً واحتضنتها وعانقتها، وحاولت الطفلة بسلوك غريزي رفع اللثام، قبض عليها ولم يسمح لها برؤية طفلتها للوداع الأخير وذهبت للمشنقة برأس مرفوع وقامة شامخة وسط دهشة الجلادين، دفنت سرا في مكان مجهول تم التعرف عليه بعد سقوط النظام. في عام ١٩٩٣ كنت في مالمو في السويد عندما شاهدت شابة جميلة في منزل السيد محمد النهر زوج أم

لينا، عندما سألته عن البنت التي لم تعبر العشرين، فوجئت بالاجابة:

« لينا».

في سراب الظهيرة يلوح شبح شخص يمشي في درب طويل، في البعيد تلوح علامات قنطرة، صوت الحجل، خلخال، يهز سكون الظهيرة، حتى لو كان جحيل الوقت. نحن نمشي فوق ارض مروية بدماء العشاق كل أنواع العشق. قتلى السياسة يصبحون شهداءً وقتلى الحب يصبحون خطاة في بلاد عشتار آلهة الحب.

كان جو بغداد رمادياً كما لو انها صورة مدينة خارجة من حرب، عبرنا جسر السنك أحد جسور بغداد، يربط الكرخ بالرصافة. عند بوابة فندق المنصور ميليا، وبعد أن ركنت فريدة سيارتها في موقف السيارات، كانت فتيات اوروبيات بثياب شفافة صيفية وقبعات من القش ملونة يدخلن الفندق، نسمع اغاني أجنبية راقصة. تجاوزنا الصالة الرئيسة ونظرت للمكان الذي قابلت فيه دين ريد وكان يجلس في المكان نفسه رجل ريفي مع حاشية والارجح شيخ قبيلة. جلست فريدة تحت مظلة شمسية في حديقة مشرقة. كان صوت سيلين ديون ينبع من مكان ما باغنية «قلبي سيستمر» في فيلم تيتانيك:

« قريبا أو بعيداً وأينما كنت،

أنا أؤمن بأن القلب سيستمر بالخفقان

مرة أخرى ها أنت تفتح الباب

وها أنت هنا في قلبي
وقلبي سيستمر ويستمر
أنت هنا ولا شيء أخشاه
وأنا أعلم الآن بأن قلبي سيستمر بالخفقان
سأبقى للأبد كذلك
احتفظ بك آمناً فى قلبي

الذي سيستمر ويستمر فى الخفقان».

أشرب ضوء النهار من داخل المسبح الأزرق، السماء زرقاء، أشرب الهواء بأصابعي، أحاول التقاط وهج الظهيرة، أتمرغ بالماء كحيوان صحراوي عثر على بركة ماء في ظهيرة قيظ، كطائر ظمآن، كل شيء أزرق، حتى الظهيرة وفريدة والكراسي والمظلات الشمسية والوجوه، بما في ذلك الاشجار وعشب الحدائق المتألق تحت الشمس.

جنون أن تعود الى وطن لتبحث عن موتى في مكبات النفايات وفي قبور مجهولة وفي ثلاجات الموتى وسجلات الشرطة والصحف تحت ضجيج التراتيل الدينية والجدران المغطاة بالسواد والمآتم والاحتفالات والتهريج وأجراس ما تبقى من كنائس، لكن لمن تقرع الأجراس؟

لوّحت لي فريدة الجالسة تحت مظلة بيضاء كلوحة» النزهة» لكلود مونيه: الريح الخفيفة في اللوحة ــ من حركة الفستان ــ والغيوم والعشب والفستان من الحرير الطبيعي والمظلة الخضراء.

فريدة هي كل ما تبقى من هذه البلاد لي. حصتي من التاريخ والنفط والأساطير وحضارة ٦ آلاف سنة من الزمن السومري والبابلي الى زمن الدكتاتورية والاحتلال، وفي الطريق ولادة الذئاب. لوحت لها بيدي وغطست في الماء كما لو أريد الهروب الى أقاصي الكون. لكنني كنت فعلاً في أقاصي الأرض على حافتها الأخيرة. ثم إلى أين؟ كل ذلك الطواف وعبور ٣ حدود دولية على الاقدام من الغام الحرب الى مثلث الموت الايراني الباكستاني الافغاني وكانت القوات السوفيتية في حالة انسحاب، ثم العودة للبحث عن جثث في النفايات.

كان العالم كله يراقب تلك الأراضي التي انبثق منها الارهاب المعزز من الغرب والولايات المتحدة لكن العالم فقد تسلسل الأحداث. العالم نسي اليوم كورونا وقتلاها وانشغل بالحرب الروسية مع أوكرانيا. العالم لا ذاكرة له وذاكرته في الاعلام والصور.

لم أقل لفريدة أنني أشم رائحة جسدها وهي نائمة كما أشم رائحة رضيع نائم تطوف على وجهه أحلام البراءة كشعاع ضوء هادئ مطمئن فوق كاتدرائية منعزلة في غابة أو كوخ جبلي. اكتشف أن الضوء مطمئن أكثر من المطر الرذاذي، أكثر جمالاً ورصانة من أشرعة القوارب، ومن لوحات كلود مونيه، ولا يضاهيه جمالاً غير الجروح النازفة كأوسمة معارك نبل لا معارك دناءة.

شاهدت فريدة تتحدث في الهاتف ملوحة لي. من الواضح انه محقق

التحري بوارو العراقي وقد أخذ حصته من الرصاص. من يدري من يكون القادم؟ لو حدث هذا، من الافضل أكون أنا من رصاصة واحدة بلا ألم ولا تعذيب كي نوقف هذه الحكاية التي لا تنتهي. لن يتوقف دوران الأرض. ستظل تدور وتدور والناس تترنح كما في رقصة تانغو طويلة.

كان العقيد تلك الليلة تحت أنظار القتلة وكنت معه في فندق عشتار كريستال وخرجت أتسكع في شارع السعدون حتى ساحة التحرير. كنت قد أقنعت نفسي بأنني المنسي. في تلك اللحظات، التي كنت أتسلق جبال زوزك قرب فريدة الغافية، كان هو متبوعاً بهم. لهذا السبب لم يحسبوا حسابي لأن الليل مكرس لقتل رجل واحد وربما هناك ليالي قادمة للقتل. في اللحظة التي سألتني فريدة:

« هل وصلت القمة؟».

وهي في حضني، سمعت أطلاق نار وعواء كلاب الليل وصفارة شرطة بعيدة ووميض نيزك عبر النافذة، وامرأة متشحة بالسواد تحت جبل زوزك على موعد مع رجل كان مختبئاً تحت الثلج، متماوتاً. سهل بلدة ديانا يضج بأزهار الربيع ولم يبق سوى أطلال للجامع والكنيسة. ليس هو وقت الموت.

* * *

ربيع أحمر

كان نثار خفيف من الثلج يتساقط عندما تركنا بلدة ديانا المهجورة ذلك الربيع الدامي وطابور العجلات العسكرية في طريق هاملتون المؤدي الى كلالة المعقل التاريخي للحركة في آذار عام ٧٥.

كان الوحل يتطاير من سرفات الدبابات والبخار يتصاعد من أفواه الجنود والبغال. انه المطر والموت والهجوم الوشيك عند منعطف الجبل القادم. على الجانب الأيمن جبال هندرين غارقة في الضباب، على اليسار جبال زوزك ونحن في مضيق وطريق هاملتون على اسم المهندس النيوزلندي آرشيا مايلن هاملتون الذي شقه في الفترة ١٩٢٨-١٩٣٢ بين بلدة سوران وديانا قرب راوندوز وحتى حاج عمران المنفذ الحدودي الاخير ويقع الطريق بين سلسلة جبال وعرة علينا اختراقه في قتال كل لحظة وكل بقعة على طول عشرات الكيلم بعد مجزرة كلي علي بك، هذا الطريق المطل على حافات خطرة ووديان سحيقة غائرة يسمى حتى اليوم بطريق الموت في ظروف السلم فكيف في حرب عصابات مدمرة؟

غابات سرو وصنوبر وكهوف وادغال وثلوج.

هذه المعركة الاخيرة بعد قتال عام كامل بدأ من جبل صلاح الدين مشياً على الأقدام في أوعر المناطق تحت المطر والثلج ما يعادل ١٨٠ كيلم في الغابات والكهوف وتحت الثلوج والامطار ورصاص القناصين في كل لحظة من قمم الجبال. مئات القتلى من الجنود في مضيق كلي علي بك وهو ممر ضيق بطول ٩ كيلم عندما فشلنا في اقتحامه بسبب قناصين محترفين على قمم جبال كورك ونواخين حول المضيق. في الليل نائما بين الجثث، كنت اسمع ساعات الجنود القتلى الالكترونية المهربة تعزف موسيقى عيد الميلاد كل ساعة، أشم رائحة الموت حتى تم إنقاذنا في الصباح بعد ليلة كابوسية لا نستطيع فيها التراجع ولا التقدم ولا رفع الرأس، تم سحب القتلى. بيان من جهاز البارستن جهاز استخبارات الحزب الديمقراطي الكردستاني عن ابادة اللواء الثامن الجبلي يشرح بالتفصيل المجزرة.

انه هجوم الربيع. ديانا غارقة في الضباب ولا شيء غير اعمدة البيوت كاذرع ممتدة نحو السماء. في حقيبة الظهر رواية أرنست همنغواي لمن تقرع الأجراس وديوان مئة قصيدة حب للشاعر بابلوا نيرودا ولا يمكن التخلي عن الكتب في أسوأ الأحوال. كان الجنود الأمريكان القتلى في فيتنام يحملون روايات همنغواي مثل وداعاً أيها السلاح ولمن تقرع الأجراس، هو نفسه كان قد شارك في الحربين العالميتين ودخل مع الجيش الأمريكي باريس وذهب الى منزل بيكاسيو وترك له عند مدبرة المنزل

صندوقاً كهدية، عندما فتحته السيدة أصيبت بالإغماء لأنه مشحون بقنابل يدوية، هما أصدقاء قدماء كما يذكر همنغواي في كتابه» باريس عيد متنقل»، يوميات سنوات العشرين الذهبية الباريسية التي جمعت أفضل نخب الأدب في العالم.

في حقيبة الظهر العسكرية معلبات طوارئ وادوات حلاقة، وربع ويسكي مهرب من دكان في راوندوز، مخصص لساعة إعلان الهجوم والترجل من الشاحنات والدخول لى كلالة مقر مصطفى البرزاني، هذا الويسكي يسميه عريفنا بكأس سقراط، عندما سألته كيف عرفت سقراط؟ قال إن إبنته طالبة في معهد الفنون الجميلة وكلما جلستُ للشرب قالت:

" بابا، هذا كأس سقراط: "

قلت:

" السيد المسيح قال: قليل من النبيذ يفرح القلب".

الحرب ليست رصاصاً وقتلى وقنابل فحسب، بل هي مجتمع خاص فيه من الأشواق الانسانية الكثيرة، المواعيد الملغية، الصمت خلف النوافذ، الحب، الانتظار، تحطم اللغة العادية، محطات القطار ومناديل الوداع...الخ كان العريف يحلم أن يتقاسم معي الويسكي، كنت مصمما على جعله يخوض المعركة صاحياً بكامل قواه العقلية، وهو أسوأ عقاب لمحارب أن يخوض معركة عبثية.

هل من مقارنة بين لمن تقرع الاجراس وهنا؟ روبرت جاردن المتطوع الامريكي في الحرب الأهلية الاسبانية ضد الفاشيست يقوم بتفجير الجسر، همنغواي نفسه شارك في الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٧ الى جانب الجمهوريين ضد الملكيين الفاشيين وجسده مليء بالشظايا وكعادة همنغواي لا حرب بلا حب وهنا تكون ماريا المقاتلة الثورية، هناك من يقول إن الروائي فعلاً إلتقى بها ومن يقول شخصية متخيلة لكن ماريا المتوثبة المستعدة للقتال الفوري وللحب في القش من أكثر شخصياته حيويةً ويمكن أن تكون نُسجت من صفات إمرأة أخرى من نساء أرنست همنغواي. العنوان لمن تقرع الاجراس مقتبس من كتاب تأملات جون دون يقول: لا تسأل لمن تقرع الأجراس، انها تقرع لك.

يسأل روبرت جاردن المحارب الاسباني بريمتيفو:

" أليس في بلدكم الكثير من الفاشيين؟"

« لا شك عندنا الكثير من الفاشيين لا يعرفون أنهم فاشيون لكنهم سيعرفون ذلك حتماً في الوقت المناسب».

عندما ترجلنا من العجلات تحت الأمطار والثلوج، كنا نشبه شخوص همنغواي، قبل بدأ الهجوم بدقائق فتحت الحقيبة وأخرجت زجاجة الويسكي أمام العريف وشرعت بالشرب الهادئ، كان وجهه لا يشبه وجه بريمتيفو الاسباني، لكن الثلج والخوف والويسكي والضباب جعلني أسأله:

”هل تعرف همنغواي؟“.

”لا أعرفه“.

” أليس عندنا الكثير من الفاشيين؟“.

” لا تورطنا ونحن في محنة“.

” هل أنت خائف ونحن سنُقتل بعد دقائق ؟“.

” وكيف ستواجه الملائكة وأنت سكران؟“.

« هل تعتقد أن الملائكة الآن لا شغل ولا عمل لها سوى التفكير بي وبك وترصد ربع الويسكي؟ انت تقصد الاستخبارات عندما تتحدث عن الملائكة لأننا في أكثر من معركة».

يبدو ان الشراب أحدث صدعاً ومن هذا الصدع سترشح الأحزان. علامة قلق وارتباك وحوار عبثي أوالخوف قبل الهجوم. الآن، أنا خارج الحرب بربع ويسكي، ومحزن بلا ماريا تتقلب معها في القش، سواء كان معنا الكثير من الفاشيين أم لا، لكن وجه العريف تحت الثلج صار مثيراً للشفقه والزجاجة لا تكفي، لكن هل يستطيع الاجابة على سؤال:

«لمن تقرع الأجراس هنا؟».

كجنود كنا مضطرين للقتال لكن زمر الأنصار للحزب الشيوعي تقاتل معنا ضد الحركة وبعد الثمانينات كان الانصار يقاتلون مع الحركة

ضد الجيش، من خندق واحد الى خندقين: كان المشهد سريالياً.

جنود فقراء يقاتلون فقراء وحزب طبقي تحت مظلة نظام دكتاتوري. في داخل خندق مهجور قرأت في ورقة بخط اليد: ما جدوى تأميم النفط من شركات رأسمالية الى سلطة دكتاتورية؟

بدأ إطلاق النار وصعود الجبل،انها القيامة والنار والوحش والموت،

كنا نصعد درباً نيسمياً صغيراً نحو القمة وهناك يتربص بنا قناصون محترفون مع كرزات وشاي وسجائر ولا منقذ من الموت، لكني سمعت من يقول فرحاً:

" وقف الهجوم. اتفاقية في الجزائر".

نزلنا من السفح الى مجرى مائي عنيف بين الصخور. تذكرت روبرت جاردن حين وضع المتفجرات تحت الجسر وفجره لكنه أصيب بطلق ناري قاتل وماريا قربه على الجواد. شعر إنها النهاية وطلب منها الهروب وتركه وحيداً. ينزف والعدو يقترب، يجبرها على الهروب بعد سماع حوافر خيل العدو تقترب. وحيد وحدة باردة وسط الاحراش ينزف وجهز بندقيته للمعركة الأخيرة. العبارة الأخيرة لجاردن وهو يستعد لإطلاق النار والعدو يقترب ولا نعرف ماذا حدث.

يقول:

«الآن؟ يا لها من كلمة سخيفة للتعبير عن ألم بأكمله، وحياة

بأكملها».

كل هذه الحياة العريضة تُختزل بكلمة: والآن؟

نحن أيضاً عندنا الكثير من الفاشيين، لكنهم لم يعرفوا يوماً أنهم كذلك رغم مرور كثير من الأوقات المناسبة.

* * *

نور الظهيرة الرمادي

لا يوجد في المسبح غير الرجال. الشمس في قلب السماء. حين خرجت من المسبح، وجدت فريدة نائمة على المقعد الطويل الهزاز. لم أجد صعوبة في انتزاع نفسي من ذكريات الحرب الى منظر امرأة نائمة تحت مظلة شمسية وحولنا حديقة تستحم بنور الظهيرة. الحرب خارج المسبح بأشكال مختلفة وكثيرة مع فارق أنك لا تعثر على الخطوط الامامية. كل سيارة تتوقف فجأة، كل ملثم، كل دراجة نارية، كل جرس باب، خلف كل شجرة، تتحول فجأة الى خطوط أمامية. لا خطوط خلفية والهجوم قد يقوم به أي ذئب ولد منتصف ليلة الغزو. ليلة الغلطة. بذريعة طاغية.

على جبين فريدة طيف ناعم كظلال تزحف فوق وجه طفل نائم في سرير. موسيقى تنبع من جدران الفندق وتسيل فوق العشب الاخضر المتوهج بزهور لانتانا وكوزموس والداليا وبيجونيا والماريجولد وعباد الشمس. أفاقت على مراحل مبتسمة لتقول:

« اتصل العقيد حازم وقد بدا في حال أفضل وطلب مني تصفح هذه الارقام على هذا الموقع».

تصفحتُ الموقع من هاتفها وكانت رائحة شعرها المنثور على وجهها تختلط برائحة الزهور والصيف والظهيرة:

« لطفاً ابعدي شعرك قليلاً قبل أن ندخل المجزرة. ليس وقت إغراء».

قرأت تقريراً صحفيا في موقع نقلا عن مصادر الشرطة:

« تسلمت الشرطة في الناصرية بلاغاً بحالة انتحار عروس بعد يوم واحد فقط من زواجها، حيث وجدت متدلية بحبل علق في سقف الغرفة. تصاعد حالات الانتحار في العراق، ويتم تسجيل الكثير من جرائم قتل النساء على أنها انتحار. تظهر دراسة لمركز البحوث التابع لمجلس النواب العراقي نشرت عام ٢٠١٤ تحت عنوان "انتشار الانتحار في العراق – اسباب، ومقترحات" تسجيل ١٥٣٢ حالة انتحار بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠١٣، بالاعتماد على إحصائية "مجلس القضاء الأعلى". وبمقارنة تلك الأرقام مع ما سجلته المفوضية العليا لحقوق الإنسان للفترة بين ٢٠١٥ و٢٠١٧ والبالغة أكثر من ٣٠٠٠ حالة، نكتشف تضاعف حالات الانتحار مرات عدة».

« بحسب إحصاء مجلس القضاء الأعلى، فقد واصلت أعداد المنتحرين تصاعدها عاماً بعد آخر، إذ سجل عام ٢٠١٣ النسبة الأعلى لحالات الانتحار بـ٩٣٤ حالة انتحار، تلاها عام ٢٠١٢ بـ٢٧٦ حالة انتحار،

ثم عام ٢٠١١ بواقع ٢٥٣ حالة، و٢٠١٠ بـ١٦١ حالة، وعام ٢٠٠٨ بـ١٠٣ حالات، و٢٠٠٩ بـ٩٥ حالة، ثم عام ٢٠٠٧ بـ٦٤ حالة، و٢٠٠٦ بواقع ٥١ حالة، و٢٠٠٥ بـ٤٦ حالة، و٢٠٠٤ بـ٣١ حالة، و٢٠٠٣ بواقع ١٣ حالة.بلغ مجموع حالات الانتحار، بحسب إحصاء وزارة الداخلية، وفق ما نشرته دراسة من مجلس النواب، ٩٠٦ حالات للفترة ذاتها بعض الحالات لم تكن تسجل في الفترة بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٨ بسبب الاقتتال الداخلي والفوضى الأمنية. ما لا يمكن التشكيك فيه هو تصاعد الأرقام عاماً بعد آخر».

في موقع آخر:» قرابة ٣٠٠ حالة انتحار منذ مطلع ٢٠١٩ وليست هناك احصائيات عن حالات الانتحار او القتل من القرى والارياف للتستر. قال خبير بالشأن العراقي: «الكارثة الأكبر أن قسما منهم متعلمون وخريجو جامعات».

أمام هذه الصورة القاتمة تظهر التقارير والصور وجه مختلف مشرق للنساء خلال أحداث تشرين الأول عام ٢٠١٩ الذي سجل نزول أفواج من النساء والطالبات والطبيبات والزوجات الى ساحات الاحتجاج بأعداد كبيرة: شيماء خالد ١٧ سنة. سناء علي ٣٩ سنة. هناء ٢١ سنة. ليلى ٣٢. شذى ٢١. ريم ٤٣. دينا ٣٥. حميدة ٤٤. إيمان ٤٢. رافق ذلك اشاعات للتشويه. قتلت الناشطة المدنية سارة طالب مع زوجها في البصرة وقيدت على يد» مجهول» كالعادة. مع سياسة الموت والتمييز الجنساني، منذ بداية انتفاضة أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٩، قُتل

ما لا يقل عن ٧٠٠ متظاهر سلمي، وأصيب ٢٥ ألفًا آخرين، في حين اختفى الكثيرون من بينهم نساء.

« هاشتاغ» بناتك يا وطن» تحول من جماعات معادية الى هاشتاغ « عاهراتك يا وطن». لا تختلف حرب مكبات النفايات عن حرب تظاهرات الشوارع، قوى الصراع نفسها والأسباب نفسها، مع فارق جوهري هو ان الموت في الشوارع يختلف عن الموت بالرصاص والخنق بالشال وتحت الاحذية كما كنا نموت بلا ثمن تحت أحذية الأمن في الأقبية: قتلى بلا ثمن ولا مشروع ثورة.

كانت سيارة الفولفو السوداء تنزلق فوق جسر الأحرار، كان اسمه جسر الجنرال الانكليزي مود الذي احتل بغداد في ١١آذار ١٩١٧، ثم جسر الملك فيصل الاول وقبل الوصول الى شارع الرشيد، نظرت نحو حانة شريف وحداد التي كانت ملتقي السياسيين والصحافيين والشعراء وقد تحول بعد الاحتلال الى سوق عصرية. في هذه الحانة تم التخطيط لثورة ٤١ تموز ١٩٥٨ بين عبد الكريم قاسم وشخصيات سياسية، وكان يلجأ للإختباء فيه متظاهرون في شارع الرشيد هرباً من عنف الشرطة، على حافة النهر بيت الحاكم الانكليزي وقربه بيت مس بيل أو الخاتون سكرتيرته التي لعبت دورا فعالا في صناعة ملك ومملكة وقامت بترسيم الحدود الصحراوية للعراق وكلبها نائم كما في رسالة فرحة الى والدها وعندما ماتت بشبهة انتحار عثروا على وصية لها توصي بالكلب وحده، وعلى عكسها لم يترك الحاكم الأمريكي بول بريمر بديل الجنرال جاي

غارنر وصية عندما غادر العراق نهاية مهمته والخراب لكنه كان يركض في المطار للحاق بالطائرة وخلفه يركض عدد من مودعيه، وفي تصريح أخير قال:» الرئيس أوباما أهدى العراق لإيران وداعش بعد قرار الانسحاب عام ٢٠١١».

يريدون منا أن نعتبر فجأة أن الخنازير أصبحت خيلاً، وأن العذارى انقلبن ذكورا، وأن الحرب هي السلام * نعومي تشومسكي.

بعد مغادرة بول بساعات، وصل صقر المخابرات الأمريكية نغروبونتي كسفير خبير في الحروب الأهلية في قارة أمريكا اللاتينية ومعه كولونيل القوات الخاصة المخضرم جيمس ستيل خبير القتل العشوائي والفتن في كولومبيا وفيتنام والسلفادور ونيكاراغوا لكي «يزحلق» العراق، بتعبير صحيفة الغارديان البريطانية في تحقيق موسع عنه، من مقاومة الاحتلال الى صراعات محلية وفتن وقتل عشوائي وفرق موت، وحوّل مكتبة عامة في سامراء الى مسلخ بشري بشهادة مراسل صحيفة واشنطن بوست، وعندما سألوا مساعده العراقي الجنرال عن هذه الصرخات، أجاب:

« هؤلاء دراويش يؤدون طقوساً دينية».

* * *

غلاديو وكوندور

غلاديو معناها السيف أول منظمة إرهابية سرية في القرن العشرين أسسها حلف الناتو عام ١٩٤٨ تولت تصفية آلاف في كل أنحاء أوروبا بدعم وتمويل المخابرات الأمريكية، تقتل وتنسب القتل للمنظمات اليسارية من البرتغال وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وباقي أجزاء أوروبا وكانت حصة الحزب الشيوعي الايطالي الاكبر في الاغتيالات لمدنيين عزل.ثم تلتها عملية كوندور :**condor operation** فرع غلاديو التي بدأت عام ١٩٦٨ وكانت تصفيات جماعية واغتيالات في قارة أمريكا الجنوبية والشركاء حكومات الأرجنتين، تشيلي، أوروجواي، باراجواي، بوليفيا و البرازيل، الإكوادور والبيرو. كان الضحايا معارضين يساريين، قادة اتحادات العمال والفلاحين والكهنة والراهبات والطلاب والمعلمين والمثقفين وأفراد من فئات أخرى، وتجاوزا ٦٠:٠٠٠ ضحية ويقول باحثون غربيون إن البابا الحالي كان عضوا فيها كما في كتاب «

عملية غلاديو» للكاتب باول ويليامز.

ثلاثة من أسسوا النظام الجديد بعد الاحتلال هم قواد ونصاب ومجرم:

١ مفوض الشرطة الأمريكي بيرنارد كيرك وهو ابن عاهرة قتلها قوادها وكيرك طفل، ثم صار هو نفسه يدير شبكة دعارة، كيرك ابن شوارع وحانات رخيصة وعليه أكثر من عشرين دعوى قضائية تتراوح بين الاغتصاب والسطو ومشاجرات المراقص والحانات. كيرك عين عام ٢٠٠٣ كوزير للداخلية في العراق، بأمر من جورج بوش الذي أعجب به خلال انهيار البرجين عندما قام بدور استعراضي كشرطي انقاذ، وهذه كل مؤهلاته، عاث فساداً في العراق وبعد عودته الى أمريكا،دخل السجن بعد السطو على متجر.

هذه شهادة الكاتب تيري ميسان الفرنسي مؤلف» الخديعة الكبرى» عن ١١ ايلول الامريكي، وكتاب» حياة امبراطورية في مدينة الزمرد: المنطقة الخضراء» راجيف جاندرا نائب رئيس تحرير صحيفة واشنطن بوست.

٢ جيمس ستيل، كولونيل، خبير حروب أهلية في أمريكا اللاتينية وجاء الى العراق وتمكن من تحويل الصراع من مقاومة المحتل الى صراع أهلي مسلح، واعتمد القتل العشوائي وفي زمنه ظهرت جثث الشوارع، غطاء عمله» مدرب قوات الشرطة» هو الغطاء نفسه يوم كان في كولومبيا

كمشرف على قوات» القبعات الخضر» وهي عصابات اجرامية كداعش، مع الجنرال دافيد بتراويس قائد القوات الامريكية في العراق، والسفير ريتشارد فورد مهندس خراب سوريا وآخر سفير فيها، والسفير نغروبونتي السفير السابق في العراق الملقب بـ قيصر المخابرات الأمريكية ومساعد السفير في حرب فيتنام ، هو الفريق نفسه الذي قاد المنظمات الارهابية وتفجيرات الاماكن العامة واغتيال الشخصيات الوطنية والاعلامية. كما فعل الكولونيل جيمس ستيل ونغروبونتي والجنرال ديفييد بترايوس قائد الجيش الامريكي في العراق، في كولومبيا لتفجير الحرب الاهلية وهي أطول حرب أهلية في القرن العشرين، بعد اغتيال الأسقف أوسكار روميرو وهي يؤدي القداس، ويضع نعومي تشومسكي الفيلسوف وعالم اللسانيات صورته على جدار مكتبه كرمز للوطنية والتضحية، كرر التجربة في العراق بالضرب على رموز وأماكن دينية مقدسة، وعن طريق منظمات ارهابية مخترقة وشارك في تصفيات لرموز وطنية ودينية كبيرة.

انتهت الحرب الاهلية الكولومبية في اتفاق سلام بين الحكومة وبين القوى الثورية المسلحة في ٢٠١٦ في أوسلو، النرويج، من نتيجة تلك الحرب أكثر من نصف مليون قتيل، خمسة ملايين مهجر وحرق القرى والمزارع.

عاد جيمس ستيل الى أمريكا وترك عراقا غارقا بالدم، يواجه تهمة

خرق التعاملات المصرفية، نصب واحتيال، مع مساعده السابق في العراق الكولونيل كوفمان.

٣ الكولونيل كوفمان، عمل كمساعد للكولونيل ستيل في العراق،

وهو مساعده في حروب أمريكا اللاتينية، وفي تأسيس منظمات إرهابية في السفادور وكولومبيا وأمريكا الوسطى، هو شريك ستيل في شركات نصب واحتيال.

الفريق الامريكي الذي عمل في العراق من نغروبونتي وريتشار فورد

وستيل وكوفمان والجنرال بترايوس، هو الفريق المتخصص في الصراعات الاهلية المسلحة، وصناعة المنظمات الارهابية.

صحفية الغارديان:

" الكولونيل جيمس ستيل هو من قام بزحلقة العراق الى صراع أهلي مسلح لخبرته في أمريكا اللاتينية وحوّل العراق الى مسلخ بشري دون أن يظهر في الواجهة".

كان على الروائي الأمريكي بول أوستر أن يجعل الكولونيل ستيل بدل أوغست بريل بطل روايته»رجل في الظلام« الذي يتخيل في الارق والعزلة والليل عالماً موازياً لهذا العالم، في ألا تكون حرب العراق قد وقعت بل أمريكا في حرب مع نفسها في حرب اهلية ولم يسقط البرجان. هذا هو التاريخ البديل **alternative history**. هل يتغير مجرى

التاريخ لو تغيرت نتيجة حدث تاريخي؟ ماذا لو أننا استيقظنا في الصباح ووجدنا أن كل ما حدث بعد الاحتلال هو كابوس طويل، النظام موجود وصدام حسين عبر الشاشة يلقي خطاباً في القصر أمام شيوخ ورجال دين قبل الاحتلال؟

كل شيء على حاله، الحرس الجمهوري والجيش والحزب والأجهزة والجداريات والصور.

قالت وهي تستدير حول ساحة حافظ القاضي وتنحدر نحو الباب الشرقي مركز بغداد:

« الى أين نمضي؟»

« الى أقرب كثافة أشجار بحيث لا يرانا أحد».

« لا أسأل لماذا لكن لا توجد هنا كثافة أشجار».

«طيب سأعانقك في أقرب فرصة ومكان بلا سيارة شرطة ولا مسلحين ولا موكب تشييع جنازة أو موكب عرس. اتجهي نحو الزعفرانية ضاحية جنوب شرقي بغداد «.

« فهمت. تبحث عن أكبر سوق للطيور هناك».

« لا، أبحث عن مكان أول جريمة قتل لفتاة كنت شاهداً فيها وأنا صبي».

« دائما تثير دهشتي».

تخترق سيارة الفولفو السوداء طريق معسكر الرشيد السابق او معسكر الهنيدي قبل الجمهورية الذي تحول اليوم الى مقبرة للنفايات وبيوت الصفيح. وسط تلال النفايات وفي خريف٢٠١٦ عثر الاطفال على جثة فتاة « ف.س» حسب التقرير الطبي وبلاغ الشرطة في كيس بلاستيك اسود كبير. عشرينية ادعى اهلها تعرضها لنوبة قلبية لكن شقيقتها ٣٣ سنة وتسكن في بيت صفيح وسط الزعفرانية قالت إن والدي واولاد عمي هم من قتلوها بعد اكتشاف علاقة مع شاب وحاولت الضحية الهرب لكن الاب حبسها وحاولت التدخل لكنهم هددوها بالقتل وعندما اصرت تلقت ضربة على رأسها وأغمي عليها وحينما أفاقت لم تعرف مصير اختها الا بعد يومين من والدها الذي حصل على شهادة وفاة عن نوبة قلبية.

تخشى الشرطة في بعض الحالات التحقيق خشية من الملاحقة العشائرية. في تموز ٢٠١٦ تسلمت مستشفى الزعفرانية جثة فتاة محترقة بالكامل بزعم الانتحار لكن الاهل والزوج من قاموا بالحرق وحصلوا على شهادة وفاة» الإنتحار حرقاً». في حزيران العام نفسه وصول فتاة تنزف بشدة من عيار ناري عثروا عليها تنزف في تلال النفايات فارقت الحياة في المستشفى. ادعى الاب انها كانت مخطوفة لكن الام همست، باكية، لمرضة المستشفى» أعمامها قتلوها». في التلال ذاتها قام أب بحرق إبنته بسبب علاقة حب وتمكن بعض الافراد من دفنها مع شهادة وفاة» الموت بسبب انفجار قنينة غاز». مقابل ٨٠٠ دولار وافقت

الشرطة والطبيب العدلي على تلك الشهادة: الموت، حرقاً».

« هل قرأتِ رواية: الموت حباً» لـ بيار دوشين؟».

« لا، شاهدت الفيلم».

« هل تعتقدين أننا سننجوا؟»

« لم أفكر في ذلك ونحن الآن صرنا ثلاجة موتى».

« مع رائحة نفايات. استديري على اليمين في هذا الشارع الفرعي المشجر نحو مشاتل الزعفرانية. هنا توقفي. لننزل».

لم يلح على وجه فريدة علامة دهشة لأنها أدمنت على هذه المواقف من قبلي ومن الواقع. دخلنا قليلاً في عمق بستان من النخيل والأشجار والأدغال. من الصعب بعد كل تلك السنوات العثور على المكان لكنه بلا شك في هذه الدائرة. قلت:

« هنا قُتلت أختي أمامي وأنا في العاشرة تقريباً من قبل زوجها بعد ثلاثة أيام من الزفاف رفضتْ النوم معه وحدها إلا وأنا بينهما في السرير، رفضت أن يمسها، في اليوم الثالث، فجراً، أيقظتني لنهرب. من هذا الشارع وهو الوحيد وقتها الذي يرتبط بالشارع الرئيس، تبعنا هو. دخلنا في غابة أشجار كثيفة ولأنه يعمل كفلاح فيها يعرف المكان. عثر علينا. قطع سعفة نخل كبيرة وقشرها ثم مزق ثوبها ومزق جسدها أكثر من نصف ساعة. تركها جثة تتنفس وجسد تم سحق كل الاعضاء الحيوية

فيه، إنتقاماً. سحبتها للشارع العام ثلاث كلم تقريبا وسط السواقي والاحراش والاشواك. ماتت في المنزل في العشرين من العمر بعد شهور بلا بلاغ للشرطة. كنت صبياً».

اقتربت مني وتعانقنا صامتين. كنت أرى السكين، الآن، تبرق تحت الشمس بين جذوع النخل. عندما أنفصلنا، لا أعرف كم مر من الوقت. أعرف كم مر من الموت. هذا النوع من الموت هو إغتيال.

« هل تتوقع أنه حي؟»

« لا أعتقد. لو كان حياً الآن سيكون فوق منتصف الثمانين. تخيلي أن يبدأ صبي حياته على جريمة قتل. لم أكن لأحضر هنا بدونك. حضورك يلطف مكان الجريمة».

مشينا صامتين، وقبل أن تشغل المحرك سألتني:

« والان؟ الى أين؟».

« كلما سمعت هذه الكلمة «والآن» أتذكر روبرت جاردن في رواية همنغواي لمن تقرع الأجراس وهو ينزف وحيداً أمام عدو يقترب على وقع حوافر الخيل عندما جهز نفسه للقتل وهو يقول: والآن؟

قالت:

« لنعد الى عاصمة الألم»

تذكرت ديوان بول إيلوار: عاصمة الألم:

«كل ما قلت، يا غالا، كان تسمعيه،

ثغري لم يستطع قط فراقك. كان دوماً يردد بألم: لا يوجد سوى انسان واحد غالا».

« لكن غالا هجرته وتزوجت سلفادور دالي».

قلت:

«اسمها الحقيقي هيلين.لو كانت هنا،كنا عثرنا عليها في مكب نفايات».

أمام باب العمارة قلت:

« يمكنك الذهاب الى أمك وسأبقى في الشقة لكي أعيد ترتيب الأوراق والحوادث. هناك الكثير لاعادة صياغته وقد أنزل للشارع للتجوال ما أن يخف وهج الظهيرة».

صعدت سلالم العمارة ودخلت الشقة وسحبت الستائر. استلقيت على الأريكة الجلدية وشممت رائحتها من حرارة شمس النافذة. كل شيء في هذه البلاد يلوح كعمارة من طبقات.

فتحت التلفاز وكان المشهد مكرراً لجنازة الشاعر مظفر النواب على قناة محلية، تهبط من الطائرة من قسم البضائع، مشهد يذكر بهبوط جنازة

كاتب ياسين مؤلف رواية» نجمة» ثم موكب تشييع يتقدمه رئيس وزراء دمية. هل خطر لمظفر النواب أن يموت في مستشفى شيخ خليجي وينقل في قسم البضائع ويتقدم جنازته جاسوس؟ تلك كانت المرة الأولى التي كان فم النواب مغلقاً عن أبناء القحبة. جاسوس أمام جنازة نبي؟ نزلاء هذه البلاد كعمارة من طوابق: الذين في الطابق الاول يعرفون الذين في الطابق الثاني بالوجه والملامح والتفاصيل الصغيرة، وهؤلاء يعرفون نزلاء الطابق الثالث والرابع وا لخ بالطريقة نفسها،لكن كل نزلاء العمارة يختبئون عقليا ونفسيا في سراديب وانفاق نفسية سرية للتحاشي او الخوف، جميع هؤلاء النزلاء ينتقلون حالاً وحسب الظرف من شخصية إلى أخرى، تعدد الشخصيات الذي يصل داخل الشخص عشرات وحتى المئات، بل آلاف الشخصيات في الفرد الواحد، لأن القمع والخوف يشوه حياة الانسان دون أن يدري، تعدد الشخصيات في الفرد يؤدي الى اضطراب الهوية الفردية والهوية العامة، الشعور أنه لا ينتمي لذاته ولا الى جماعة، وهو ملصق وليس متجذرا بالهويتين، نحن في عمورة وسدوم جديدتين وستكون النتيجة واحدة . صور فريدة على الجدار تطل عليّ في العتمة الناعمة في المكتب. في صورة ترتدي قبعة زرقاء بقميص صيفي أبيض وتنورة رمادية طويلة وتلوح كفتاة ثانوية بعقيصة شعر ذيل الحصان، كصورة أميلاّ غلاف رواية» الثلج يشتعل» للكاتب ريجيس دوبريه رفيق درب جيفارا واعتقل معه في بوليفيا، أميلاّ إبنة جبال النمسا التي « تحارب من أجل العدالة في أوروبا وأمريكا وأدغال كوبا وتقع في حب المناضل كارلوس الذي تغتاله الشرطة السرية البوليفية، فتخسره وتخسر

الطفل الذي إنتظرته منه، وتخسر الثورة لكنها لا تخسر حلمها في تحقيق العدالة وتواصل طريقها بلا ملل حتى النهاية».

* * *

زوال الأمكنة

عندما التقيت بها بعد سنوات المنفي، قلت لها بحياء:

" أنتِ أجمل مما تركتك".

ضحكتْ وكانت النجوم ترصع السماء في المساء العراقي الباهر، جلست جوارها في السيارة من المطار. اخترقت السيارة شارع السعدون وذهلت من حجم الخراب،كان القمر قد بزغ كما لو من أعماقي، لا أثر للمكتبات القديمة، سينما سميراميس مهملة وكنت قد شاهدت للمرة الأخيرة فيها فيلم:

" خيول فالديز» جارلس برونسون، نظرت الى ركن يسار الشارع قرب سينما بابل حيث كان مقر جريدة الحزب الشيوعي» طريق الشعب»، أمام سينما سميراميس، هناك مقهى صغير في زقاق فرعي قرب السينما.

ضحكتْ وقالت:

” خلف السينما في فرع يؤدي الى شارع أبو نؤاس هناك محل للشاورمة. اعرف أنك نباتي ولا تقترب من اللحوم“.

في شارع الربيعي في منطقة زيونة تقع الشقة المستأجرة. افترقنا وانزلقت سيارتها في الليل. عبر الشرفة تلوح سماء بغداد مرصعة بالنجوم. النجوم ذاتها قبل ثلاثين سنة. تجولت في شوارع لم أعرفها من قبل. لا شيء كما تركته حتى أنا تغيرت. يبدو كل شيء مرتبطا بي حتى رائحة الاسفلت والحدائق والليل وضوء النجوم.

في الصباح أسفل العمارة على مبعدة أمتار كانت في انتظاري في السيارة تستمع لكونشيرتو دي آرانخويث للموسيقار الاسباني الأعمى خواكين رودريغو الموسيقى.

كانت بغداد من الشرفة تلوح غارقة في ضوء النهار، خارج كل هذا الواقع الملتبس الذي محاه الضوء، كان دولاب مدينة الالعاب الضخم يمنح المكان شعوراً بالطمأنينة، لكنها طمأنينة مزيفة.

كانت في الصباح في صالون رويال للحلاقة القريب من دار الأزياء، واما انا فلا احد يعرفني بعد سنوات المنفى بل من غير المتوقع ان يتعرفوا على وجوههم القديمة في الصور بعد دوامة مهلكة، في السيارة في التقاطع المؤدي الى ملعب الشعب، تأكد لي أشياء كثيرة قد تغيرت في الأماكن، سألتني إذا كنت ارغب بشيء؟

فقلت في فنجان قهوة، انزلقت السيارة في الشارع وقرأت عنوان أكثر

من كازينو في الشارع، كازينو رويال، كازينو ريحانة، قالت هذه أشهر كازينو عائلية، لم أعلق. كانت عناوين المطاعم والمحلات والمقاهي تنزلق أمامي: مطعم فرايد تشكن فقالت:

" هذا المطعم متخصص بالدجاج، لا يفيدك كنباتي".

ثم علامة مطعم السماء الزرقاء **Blue Sky**، وبعده مطعم الأوقات السعيدة **Hppy Time**، مطعم الخردل، مطعم صاج التركي، ثم ظهر مبنى من سبعة طوابق: الأمير مول.

قالت:

" هذه المحلات والمطاعم بعد الاحتلال".

" نعم، ولم تكن موجودة يوم غادرت العراق".

انفتح الطريق على حديقة واسعة فقالت:» حديقة الأرض السعيدة **Happy Land** ثم مول جوهرة بغداد".

في الأفق تلوح أراجيح مدينة الألعاب في شارع فلسطين، تحت السماء الصيفية الهادئة تذكرت تلك اللحظة بعض ذلك الماضي وتخيلت نفسي صبياً محلقاً في عربة طائرة، لكن صوتها أعادني الى الواقع.

" سرحت؟ أين نمضي؟:"

كان علي أن اختار فقلت:

”كازينو رويال“.

في الطريق شاهدت جانباً من مجموعة العمارات السكنية القديمة التي بنيت في الثمانينات بمساهمة شركات هولندية وفرنسية، فقالت:

” بعد العنف الأعمى هاجر كثير من سكان المنطقة وخاصة من المسيحيين“.

إستطعت أن احدد بناية» سوق الثلاثاء المركزي» المجمع التسويقي الأكبر في الشرق الأوسط يومذاك، لكنه تحول اليوم الى ثكنة عسكرية بعد الاحتلال وسجن سري وكذلك مسبح الفردوس.

قلت:

” محزن.»

وعندها ركنت السيارة في موقف سيارات من ثلاثة طوابق مقابل مطعم بلو سكاي جوار كازينو كوزمو.

قطعنا المسافة الى كازينو رويال مشياً، كنت مستمتعاً بدفء الصباح والشمس وفارغ البال. تذكرت أنني بحاجة لجهاز سحب آلي للنقود.

قالت:

” هناك صراف قرب مطعم ريحانة، وشركة الطيف للصرافة ومصرف آشور الدولي».

قبل الدخول الى كازينو رويال فكرت في أنها أكثر هدوءاً، تمكنت من إيقاف مشاعري قبل أن ينزلق الخيال نحو الحافات البعيدة.

كانت كازينو رويال **Royal Cafe** في الطابق الثاني في عمارة ستي ستار بالقرب منها كازينو الريحانة العائلي، وجلسنا في صالة وشعرت برفاهية لسعة المكان، كان شباب يدخنون النارجيلة بملابس حديثة تنتمي لعصر ما بعد السقوط، سقوط من؟

جلست قبالتي كأرنب بري متحفزة لكل شيء، ومن لا يعرفها يتخيل امراة بسيطة بل ساذجة، شاهدت وانا ارتشف القهوة طاولات بلياردو خضراء، وقاومت إغراء اللعب في حال كانت تعرف اللعبة، لكنها سارعت للقول وقد حدست خواطري:

" ستلفت الانظار لان كل شيء فيك خارج موسيقى المشي والايقاع والنظرات هنا وتقع في مصيدة لصوص ".

أعجبتني الملاحظة لأن المشي ثقافة وموسيقى وفي سنوات المنفى صار إيقاع مشيتي يميل للهدوء ونظراتي للتأمل بلا قلق وهي علامات قد لا تكون بارزة للعامة، لكن لمحترف في وكالة مخابرات أو أمن قد يصادف حضوره. تحت طاولة البلياردو دمية صغيرة لدب قطني على ظهره يرفع ساقيه، ثم قلت:

" لنخرج».

في الشارع العام أمام ضوء الصباح الباهر والناعم والطيران الهادئ الزلق للطيور المنزلية وهو مشهد غير مألوف في المنفى، غمرني حنين لزيارة بعض الأمكنة القديمة،نزلت قرب جسر الجمهورية للتسكع ، على الطرف الاخر من شارع إبو نؤاس، قرب سياج مدرسة الراهبات الخلفي المطل على النهر كانت ستنتظرني في شارع فرعي بين السعدون وأبو نؤاس، أول فرع من شارع السعدون يؤدي الى شارع أبو نؤاس، على الجانب الأيمن من المقهى القديم المسمى: مقهى المعقدين» وهم خليط من مجانين وماركسيين وتروتسكيين ورجال أمن وفنانين وشعراء وكنت أحد زبائن المقهى. نزلت نحو النهر كما كنت افعل من قبل وتذكرت باعة السمك بل شممت رائحة الماء والعشب والماضي، ووجوه طيفية عائمة لبعض معارف ذلك الزمان، لم أكن ارتدي أكثر من قميص صيفي أزرق هادئ لوني المفضل وبنطال كحلي بسيط. كان طابور سيارات حكومية بي أم دبليو مصفحة سوداء متشابهة يعبر الجسر في تلك اللحظة، ويمضي نحو ساحة التحرير ثم ينعطف نحو شارع السعدون. كانت سينما أطلس تعرض فيلم:

" اغتيال رئيس" بطولة ياسر جلال وامير كراره.

كان التيس يمر وهتافات الشعب يريد اسقاط النظام. لكن أين هو النظام؟ الذين ينزلون للشوارع يريدون الديمقراطية تركوا خلفهم سجونا وثكنات أسرى من النساء، وبعد كل مجزرة يعودون في المساء قبل دفن

القتلى لمشاهدة مباريات كرة القدم وأفلام البورنو ولعب الورق.

سحبتُ أوراقاً من درج مكتبها لتدوين بعض الملاحظات. عثرت على مقال لي كانت فريدة قد سحبته عن أيامي في طنجة. قرأت كما لو أول مرة:

« برق يضيء الباب. البرق يأتي الآن عبر النافذة ويضيء وجهي،

ماذا جرى للبحر الابيض المتوسط من جنون العظمة في ليل طنجة؟

مسرح سيرفانتيس مهجور ومظلم والبوليفار الشارع الرئيس صاخب وأضواء الجزر الإسبانية تلوح عبر البحر من مقهى **Panorama** بانوراما المطلة على البحر والأبدية ٤٥: دقيقة فقط في الباخرة الى جزيرة طريفة الاسبانية نسبة للقائد طريف بن مالك قبل فتوحات طارق بن زياد. فوانيس الجزيرة كما هي معلقة في الشوارع تضيء الأحجار القديمة:

إنه التاريخ، حياً.

" نحن في ليل طنجة ندخل،

لكننا سوف نسأل: كيف نخرج؟

مثل الدروب التي لا تؤدي الى البحر، ليل طنجة»*.

*سعدي يوسف، ديوان: طنجة.

في جزيرة طريفة الاسبانية مقابل طنجة عبر البحر المتوسط صوت الشاعر رفائيل البرتي بصوت ماريا صاحبة البنسيون اخر سلالة عربية:

" لن أكون حجارة أبداً، سأبكي عند الضرورة ، سأصرخ عند الضرورة ،سأضحك عند الضرورة، سأغني عند الضرورة".

آخر الشعراء الاسبان الكبار يوصف بشاعر العذاب والجمال والفتنة الساحرة والألم والسعادة الناقصة وشاعر الشوارع، من جيل لوركا وماتشادو وخوان ريمون خمينيث، اشترك في الحرب الاهلية ١٩٣٦ ضد الفاشيسن مع الجمهوريين، هرب الى فرنسا ثم أمريكا. عاد الى إسبانيا بعد وفاة الجنرال فرانكو عام ١٩٧٥، عاش في عزلة في بلدته بويرتو دي سانتا ماريا حتى وفاته ١٩٩٩.

" إنها خاتمة القرن، يا إلهي،

أرى من فوق جسور السين،

قلبي يهبط نحو النهر،

وحيداً وميتاً من الألم".

كتب ذلك يوم عاد الى باريس منفاه ولم يجد أحداً من جيله، عاد طفل الغابة ليبحث في المقاهي والشانزيليه عن بيكاسو وأراغون وفاليري وهمنغواي وجيرترود شتاين، عاد كما يعود الرعاة في الصيف لكن لا أحد.

في الباخرة الأخيرة من طنجة المغربية الى جزيرة طريفة الاسبانية في المساء، البحر الابيض المتوسط وأضواء الجزيرة الايبيرية تلوح عبر البحر، اضواء قلعة غوزمان أيل مضاءة من جزيرة اليمام. تاريفا **Tarifa** كما تلفظ بالاسبانية وذكرها الادريسي في كتابه:»نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». كلما سافرت الى طريفة انزل في بنسيون السيدة ماريا، آخر سلالة عربية أصيلة، على شكل منزل عربي صغير مرفه بنافورة مياه وغرف طراز اندلسي في زقاق قرب البحر والميناء، ماريا مغرمة بالشاعر رافائيل البرتي وتحفظ عن ظهر قلب قصائده بالإسبانية وعادة أحمل معي:

رافائيل البرتي، مختارات شعرية للمقارنة مع النص الاصلي، عندما أعود منتصف الليل من شوارع طريفة، أعود منهكاً من رائحة التاريخ والفوانيس العربية المضاءة في الأزقة القديمة تحت قمر صيفي مشع، وأحجار الشوارع القديمة التي أخجل من المشي فوقها، تكون ماريا يقظة وجالسة على عتبة البنسيون في الزقاق تدخن النارجيلة، وقبل أن أصل تردد مقاطع البرتي.

" أنت أيها العابر،

ملاك تجرفني لتتركني".

وأكمل أنا:

" إبحثوا عني في الموجة،

فيما يمضي ولا يعود،

رياح تنطفئ في الظل وتشتعل".

تكمل هي:

" إبحثوا عني في الثلج،

ما يجهله الجميع،

رمال متحركة،

لا تحادث أحداً".

تقول: «إكمل أنت"

لكني أغص بضوء الفوانيس ونور حجر الزقاق:

" إبحثوا عني في الهواء «.

كلانا يبحث عن شيء مفقود، أنا في منفى المكان وهي في منفى التاريخ. كلانا خسرنا لكنها في وطن وانا جوال. المرة الأخيرة في الفجر كان يجب العودة الى طنجة عبر البحر، قبل مغادرة عتبة الباب صاحت خلفي:

" توقف».

سمعتها تردد فجأة مقطع البرتي:

" أنت في وحدتك، بلد مزدحم".

قلتُ لتلطيف الجو الرمادي في فجر الجزيرة الايبيرية:

" في المرة القادمة سنقرأ ديوان البرتي:

ملاك غير محظوظ".

هزت رأسها ولم تقل شيئاً، لكنها قالت الكثير.

* * *

ليلة لشبونة الثانية

في المساء قضيت ليلة في لشبونة في البرتغال، قادما من طنجة المغربية في الطريق الى النرويج بعد عام في المدينة الساحلية. سحرت طنجة ادباء العالم وأي كاتب وفنان يزورها يقع في سحرها. كتب فيها وليام بوروز روايته الشهيرة الغداء العاري وعاش فيها ادباء امريكان مثل الروائي بول باولز مع زوجته نصف قرن والمخرج الشاعر ايرا كوهين والشاعر والرسام بيتر اورلوفسكي وجاك كيرواك روائي ورائد ادب التمرد وممثل جيل البت التمردي **Beat Generation** والشاعر الن غينسبيرغ وجان جنييه الكاتب المسرحي الفرنسي عاش ودفن فيها وصموئيل بيكت وغيره.

كان علي المبيت في مطار لشبونة في انتظار موعد اقلاع الطائرة الى بروكسيل والمبيت ايضا ليلة اخرى في المطار، حتى الصباح في انتظار الطائرة الى أوسلو النرويج واستقل قطار الالف كيلو متر الى المنزل. بحثت في دفتر صغير عن عناوين أصدقاء فلم أعثر على أحد في لشبونة. لقضاء الوقت رحت أبحث عن الأماكن التي تحدث عنها الروائي الألماني أريك ماريا ريمارك في روايته» ليلة لشبونة» وسقفها الزمني ليلة واحدة

يقضيها هارب من النازية يبحث عن طريق للهروب لكنه يعثر على هارب آخر صدفةً قرب الميناء ويطلب منه الآخر الاصغاء له فقط ويروي حكايته التي لخص فيها تاريخاً عاماً وخاصاً وفي الفجر يعطيه تذكرة سفره في الباخرة وجوازه المزور لأنه لن يسافر لأن زوجته ماتت وهي ترقد في تابوت في غرفة مغلقة عفنة، الآن. خسارته تمت ولا فائدة من النجاة، ما فائدة أن تربح نفسك وتخسر حباً؟ أريك ماريا في هذه الرواية الرائعة المكتوبة بنثر في غاية البهاء والجمال والذوق الاقتصاد والعمق الفكري الاستثنائي الموزع بجمال وبلا خطابية، لخص تاريخ أوروبا السياسي الملطخ بالعار وتاريخ النازية من خلال ليلة واحدة فقط. تجولت في ميناء لشبونة وبحثت عن الأمكنة التي دارت فيها أحداث الرواية، ومع أني أعرف بالصنعة أن التطابق بين الواقع والمتخيل غير ممكن، لكني بحثت عن كازينو» أوستريال»و» النادي الليلي الروسي»، والحانات التي التقى فيها الشخصية الرئيسة مع الهارب الآخر الذي منحه تذكرته للهروب مقابل الاصغاء .لكنهما،خلال الحكي، والحوار، يعيدان اكتشاف حياتهما في السجون والحرب وفي الحب، ويأخذ الحديث عن الحب والهروب مساحة واسعة مع التاريخ الاوروبي، الخطر والحرب والعذاب يكشف القيمة الحقيقية للحنان البشري، أفضل حل في مواجهة البشاعة والموت .كلاهما عالق بحب امرأة، واحدة تموت في غرفة فندق، والأخرى تهرب معه،كانت أوروبا نفسها تحتضر.

لم أجد أي اسم يحمل تلك الأمكنة وربما كانت أسماء متخيلة، أو

تغيرت، سألت صاحبة حانة لطيفة إذا كانت قد قرأت رواية» ليلة لشبونة"، فنظرت بإستغراب قائلة:

"كيف؟ أمامك في الميناء جرت الأحداث".

وسحبت نسخة من رف قائلة:

" هذه النسخة البرتغالية المترجمة. هي تاريخنا».

كنت أنتظر طلوع الفجر للسفر الى مطار ثم آخر، نمت في مطار لشبونة في الطابق الأرضي المخصص للبنية التحتية للمطار، في ركن منعزل وهو مكان غير مسموح بالنوم أو البقاء فيه، عندما عثرت علي مراقبة في المطار دهشت، طلبت جوازي وكانت دهشتها أكبر قائلة:

" نرويجي وينام هنا بين المعدات والاجهزة؟".

عندما نظرتُ لها شعرتُ في ومضة أنها حدست شيئاً ما من الانهاك الواضح على وجهي، غادرتْ المكان وتركتني أقضي الليلة.

ربما من دون وعي تماهيت مع شخصية المطارد، أو هي عادة العراقي المتعب من كل شيء، في البحث عن الزوايا المنسية والمعتمة، خارج الضجيج، خلال هذا الوقت كنت أتساءل:

هل أنا أحد شخوص ليلة لشبونة؟

* * *

عواء

وجدتني نائما في الغرفة الخلفية في شقة فريدة في الظلام فاقد الشعور بالوقت وأشعر بالجوع لكن من الضروري معرفة في أي ساعة الآن لأن كل شيء مبرمج على أوقات السلطة حتى الأكل. أتعس أنواع السلطة هي التي عليك أن تتذكرها صباح مساء كما قال أرنست همنغواي.

غادرت السرير وفتحت ستارة النافذة. كان المساء في الشارع وشجار عنيف في الطرف الآخر وشخص ما يمزق زيق قميصه. العراقي هو الانسان الوحيد في العالم الذي عندما يصاب بانهيار، يمزق ثيابه من «الزيج للزيج ـ الزيق» ويعوي وهو ينظر الى السماء، ويفتح فمه على وسعه كما لو يريد ابتلاع العالم، او صرخة الانسان البدائي في كهف وهو يواجه حيوانا مفترسا، كعواء ذئب جريح ينزف ووجهه نحو القمر في صحراء، كما لو انه تلك اللحظة ينتقم من كل منظومات الستر والاخلاق والقيم الفاسدة الملفقة لكي يظهر في لحظة عري امام عري وقسوة ووحشية العالم.

احتجاج وحالة أنكار كما لو أن تمزيق الثوب هو عبور تلك اللحظة.

هذا الانسان الجميل المقهور المقتول حياً، المنفى في جسده وداره ومجتمعه، الذي يعاني من الاغتراب في بلده كمسمار ملحق بعجلة ضخمة جهنمية، كإطار في صورة حشود لا انسان، أو حطب حروب وعلف مدافع، القادم للحياة كضيف مشبوه والراحل بصمت زهور البرية، لا حضور له إلا كعلف مدافع ووقود حرب. رأيت كل أنواع المجانين والمنهارين في بلدان مختلفة، فوجدت الهدوء والكآبة العميقة والصمت والنظرات الحائرة أو الفارغة، لكن مثل العراقي في لحظة انهياره لم أعرف مثيلا، إنه يكتب صرخته في هذا المشهد الاستثنائي حين يعجز عن التعبير عن أقسى الوجع المحرق. يتحمل كل أنواع الضيم، تتراكم عليه كل أنواع الخسارات والاهانات والاذلال والخوف والرعب، وهو يكابر. يحترق ويتمزق من الداخل ويكابر، يعض على نواجذه من الحياء، دون أن يعرف ان هذه المكابرة تسحقه ببطء كما يسحق القمح في المطحنة. عندما يستهلك كل الطاقة النفسية والعصبية والجسدية ومعها طاقة الحياء اللاجمة، يحدث الارتطام والتعري وتمزيق الثياب بل الصرخة الوحشية. هذا الارتطام نتاج تراكم قهر معتق قد يحدث في أية لحظة، بل قد يحدث في لحظة» تماسك» في الظاهر، لكنه انهيار جبل الجليد في الاعماق.

رن جرس الباب الشاعري بصوت بلبل مغرد لكن ماذا خلف صوت البلبل؟ باحث عن عيادة طبيب أو سمسار عقارات؟ لكني لم

أفتح لأن فريدة يمكنها فتح الباب بمفتاح اضافي ولا ترغب في الازعاج وخلق القلق لي. كل شيء قد يكون خلف الباب من الشرطة الى فتيان مسلحين أو منظف العمارة، لكن لا مجال لفتح الباب. من حسن الحظ انصرف ولو كسر قفل الباب، لكان المكان سيتحول الى مسرح جريمة.

أسفل الطابق كان كازانوفا كما يسمي نفسه صاحب كشك صغير للصحف يتناول جرعات من قنينة خمر مخفية في زجاجة عصير . سمعته يردد لجلب انظار المارة:

« قاتل بلا قتيل».

عندما تحريت عن الامر في جهاز البحث، ظهر أن شخصاً متهما بجريمة قتل حكم عليه بالاعدام بلا جثة قتيل وقد حضر الشخص المجني عليه المفترض كما في الاسم الثلاثي يعلن انه حي والمتهم برئ وهو لا يعرفه ولم يظهر القاضي دهشته بل سأله:

« هل أنت متأكد أنك الشخص المعني؟».

لم يكن القاضي يمزح لكن الشاهد حاول الضحك من غرابة السؤال لكنه بلع ريقه وقال:

« حسب محضر التحقيق والاسم الثلاثي ومكان الجريمة، فهو أنا ولا شخص غيري».

قال محامي المتهم:

« قضيت عشرين سنة محاماة لكنها المرة الأولى أدافع عن قاتل بلا قتيل ولا جثة وهؤلاء الشهود حضرة القاضي لاخفاء جريمة أخرى وعليه أطالب باطلاق سراح موكلي».

فكرت لو أطلق سراح موكله، أين يذهب؟ سيكون في انتظاره الشهود وشرطة التحريات الذين أعدوا محضر التحقيق ومن رتب هذه الجريمة ومن قدم الرشاوى للايقاع بهذا الرجل. عاد المحامي بصوت مرتفع غاضب:

« هل ترى حضرة القاضي ألا وجود لعائلة القتيل؟ أين مخطط الجريمة؟ في أي مكان؟».

ضحكت من عبارة مخطط ومكان الجريمة لأن أي مكان يمكن أن يتحول الى مكان جريمة بلا مخطط. المال والسلطة والعشيرة والنفوذ والقانون يحلون كل شيء. هل هناك مخطط ومكان جريمة لمئات المقابر الجماعية؟ خلال محاكمة الدكتاتور كان يحاجج المشتكين من عوائل المقابر الجماعية قائلاً:

« هل تراب المقبرة حديث أم قديم؟ هل أغلفة الرصاص متربة أم لا؟ هل الضحايا جنود أم بملابس مدنية؟».

وينتهي الى القول، واثقاً:

« هذه مهزلة مرتبة ولا توجد مقبرة جماعية إلا في الأوراق».

* * *

في انتظار سوسو

عندما كان» سوسو» أحد ألقاب ستالين الفتى خلف حانة تفليس في جورجيا يقوم بعمليات النشل والسطو على المصارف واحراق المباني والابتزاز، لأن سجله الاجرامي يمكن تحويله الى نظرية ثورية، ثم بدل السطو على المصارف والقتل بإسم عصابة، صار السطو والقتل بعنوان الثورة، كانو» سوسو عراقي» بطبعة بدوية منقحة يجهز نفسه لتقليد سوسو الجورجي أو ستالين. لم يخطر في بال أحد أن هذا الجورجي الفالت والشقي ومحرق المزارع والمصارف واللص والقاتل الفوري، خلف حانة تفليس سيحول الحانة الى إمبراطورية. إنه ستالين الذي خدع لينين وقال:

" لا أخشى معارضة العجوز".

كما فعل سوسو العراقي مع الجنرال العجوز البكر بخطوات ذئب في حالة قنص في دغل. قال صدام مرة في خطاب متلفز:

« كل من يعادي الحزب والثورة يجب أن يشعر أن الأشباح تطارده حتى في النوم».

هذا ما تحقق من سلطة الأشباح بل وصل الأمر مداهمة اللاوعي والحكم على النوايا ونزل الناس الى القيعان السرية في الاحلام والاختباء في الانفاق النفسية لكن المخفي والمقصي انفجر بعد الاحتلال وصار اللاوعي وعياً. انفجر مكبس بالوعة الجيف المخفية وطفح مخزن الكوابيس.

لم يبق حياً من رفاق سوسو العراقي الذين قضوا على مراحل، في موت طارئ أو شاحنة أو مؤامرة مزعومة أو هاجس داخلي من الانقضاض غير انفار. سوسو الجورجي أسس نظام «القلعة الحصينة» وستتحول الى عنوان رواية لصدام، أي القصر الخاص المرفه البعيد عن المدن وخارج الطريق العام ومحروس بنخبة قوات خاصة، وسياج مكهرب مع عدسات، وعند القفز من السياج هناك حقل الغام، وبعد السياج الأول هناك الثاني المكهرب ثم حقل الالغام والخ. التصميم نفسه لمجمع سوسو العراقي في الرضوانية مع نظام أجهزة أمنية متشابكة ومعقدة من الأقارب. كما عاش ستالين وسط جماعات من اللصوص والقتلة وقطاع الطرق، عاش صدام الفتى مع أشقياء وفتوات بغداد مثل علي ماما وقيس الجندي وحمودي الاقجم وخالد دونكي وبعض هؤلاء انتقلوا من الحانات والمقاهي والشوارع الى الأجهزة الأمنية في فرقة اغتيالات في جهاز حنين، نواة جهاز المخابرات، وجلادي سجون ثم تولى سوسو تصفية بعضهم كصيد الكلاب في الشوارع لاخفاء الأسرار الخاصة عن تاريخ يجب أن يُدفن لصناعة وتسويق أسطورة بطل قومي ورجل ولد من

قلب الظلام كضوء منقذ كما في كتاب أمير إسكندر:» صدام حسين: مناضلاً ومفكراً وانساناً».

خدع هو الآخر» العجوز البكر»وتعكز عليه. لم يتكلم أو يخطب ستالين باللكنة الجورجية المحلية إلا عندما صار الرئيس، كذلك سوسو العراقي لم يتكلم باللهجة التكريتية إلا عندما صار الرئيس. خلال مجزرة قاعة الخلد في تموز عام ١٩٧٩ وهو يطرد المتآمرين المزعومين، قام شخص في القاعة يخاطب صدام حسين قائلا بانفعالٍ:

" رفيق صدام طبق عليهم الاساليب الستالينية".

شعر صدام بالانزعاج وأدار وجهه نحو جهة أخرى متظاهراً بإطفاء السيجار. لم يكن الرفيق المسكين يعرف أنه داس لغماً. بعد الاحتلال سيظهر، يوماً، حزب سوسو الثوري الاشتراكي أو أي إسم آخر، وسبع الليل، يومذاك، من يمر بالشارع ويظل عقاله على راسه.

من غير المعقول أن يتناول شخص طعام الفطور مع جنرالات وهو مقرر اعدامهم نهاية الافطار. هذا ما قام به صدام حسين في ٤ نيسان ١٩٩١ وصادف شهر رمضان عندما أفطر مع الجنرال بارق عبد الله والجنرال عصمت عمر والعميد الركن غازي جسام وكلهم من القوات الخاصة ثم أعدمهم نهاية الافطار بتهم مرتجلة في سلوك لا يُفسر بغير ثالوث الظلام: السيكوباتية والنرجسية الخفية والميكافيلية.

سوسو العراقي استنسخ هتلر أيضاً في قوات النخبة البانزر بتسليح

مختلف عن الجيش العام، ودوائر امنية متعددة من أمن الرئيس كحراس شخصيين مثل جهاز أمن الرايخ الى الغستابو لحماية النظام والحزب كما استنسخ لافرينتي بيريا رئيس الأمن السوفيتي وأجهزة الشرطة السرية بطبعة متخلفة مثل ناظم كزار وحسين كامل وفاضل البراك وغيرهم الذين أعدموا نهاية الصلاحية وغلق الملف الأسود.

في رواية فؤاد التكرلي «اللاسؤال واللاجواب» يتحول زهدي من انسان الى فأر، في حصار التسعينيات، كما تحول غريغور سامسا في « مسخ « كافكا الى حشرة كبيرة، «كان مثل دبيبة تزحف».

عبد الستار زهدي عكس غريغور، يطلب النجدة من زوجته لمساعدته لكن زوجته النائمة قربه لم تسمعه، كيف تسمع صرخات الفأر؟ لم يعد صوته مسموعاً بعد التحول وهو فارق بينه وبين زوجته ليس بالمسافة بل الهوية، كيف إنتهى زهدي؟ مات غريغور سامسا وحملته الخادمة ووضعته في حاوية النفايات، نهاية الأعزل، لكن زهدي في المشهد الأخير غاص في كابوس أبدي ولم يخرج منه، إلتهم نفسه وتحول هو الى نفاية.

بعد فأر التكرلي، ولد الذئب.

* * *

الليل أبيض وأسود

كتبت رسالة في الهاتف الى فريدة قبل النزول الى الشارع:

إنتظريني هذا المساء،

الليل أبيض وأسود".

* الشاعر جيرار دورنيفال.

مكتب فريدة مصمم كشقة مرفهة. الجدران رمادية لون التقشف والرصانة والعزلة مع مظلة اضاءة خافتة في الزاوية وستائر مطرزة باغصان رفيعة مشرقة كحديقة منعزلة. في غرفة النوم تتضح البساطة واللون الابيض الفاتح والسقف كغرفة استوائية من الخشب المنسوج بمهارة وباقة ورود فوق طاولة نوم وسرير لشخص واحد لكنه يتسع لاكثر واضاءة مدفونة بين سقف الخشب مع اضاءة أسفل السرير لتغيير المنظر وسجادة من اللونين الاخضر والازرق وعلى الباب تعلق دمى قطنية

لعصافير ودب ونسر وصورة طفلة في ارجوحة لفريدة بلا شك باللون الاسود والابيض.

لم أرغب في الاتصال بأصدقاء قدامى. كنت أريد اكتشاف الاشياء بنفسي وعيون فريدة التي لم يتغير فيها شيئاً في الأعماق. كنت أبحر في أدغال ونهر دجلة كما في رواية» قلب الظلام» لجوزيف كونراد عن رحلة في نهر الكونغو في قلب أفريقا لكنني لست مارلو الذي يروي للاصدقاء رحلته. أنا أروي لنفسي.

تطلعت ثانية الى الشارع وانحنيت أكثر وكان كازانوفا يردد بصوت مرتفع:

« فتاة مذبوحة بلا رأس في شارع الصدى».

ثم عب من زجاجة العصير حتى الثمالة وهز كتفيه من المذاق اللاذع ومن المحتمل ان يكون عرق جلّنار الاحمر والأخضر بنسبة كحول ٥٠ بالمئة كتب تحت دعايته» مستلهم من قصص ألف ليلة وليلة».

كيف يتجاور العرق مع نهر دجلة والف ليلة وليلة مع القتل والشعر ونصب شهرزاد وشهريار وجنازة النواب وصدام حسين وأبو نؤاس وشارع رئيس الوزراء المنتحر عبد المحسن السعدون الواقف منتصف الشارع بتمثال مقلّد بعد سرقة الاصلي صورة طبق الاصل من عراق يختفي ليس عن معارضيه بل عن من يؤيدونه لان الواقع الحقيقي مختفي؟ حتى جان بودريار مؤلف اطروحة موت الواقع لن يعثر على

الواقع الحقيقي لأن كل مساحة أرض هي واقع مختفي.

يوم زار الروائي ماريا بارغاس يوسا العراق من حزيران الى تموز عام ٢٠٠٣ وزار النجف واربيل مع ابنته المصورة ووضع كتابا بعنوان: ”يوميات من العراق» وفي يومه الأخير في أربيل قبل العودة الى بغداد قال له مقاول كردي في صالة الفندق بعد اعجاب يوسا بالعمارات والشوارع والحدائق:

« لا تفرح بما رأيت، هذه ليست كل الصورة».

مفارقة أن مقاولاً يشرح لماريا يوسا أن الواقع الحقيقي ليس ما يراه بل المخفي. خلف العمارات والشوارع النظيفة والواقع الظاهري المعقّم، واقع مختلف في الأزقة الخلفية والأرياف والجبال البعيدة، حيث الثلوج تهطل بعيداً عن موسيقى مراقص الليل.

كتب ماريا في كتابه:

”كنت أحاول أن أذكِّر نفسي بأن ما أراه هنا سطحي ومزيَّف. كنت أحسُّ في فمي بطعم شيء مرّ اسمه الغضب. الحرب الامريكية على العراق خلقت أنقاضاً وحريةً لكنها الحرية البربرية التي أدت الى نهب كل شيء وأن خراباً ضرب بغداد جعلها مدينة شديدة القبح بعدما كانت من أجمل المدن العربية».

رسالة في الهاتف:

« أنا في الطريق اليك شرط ألا تستمني في الحمام».

مع رابط اغنية فايا يونان: أنا في الطريق اليك:

« في الطريق اليك. لا تخف إن تأخر قلبي عليك. أنا ما أضعت السبيلا. لكني في الطريق اليك وجدت الطريق طويلا».

لو يمهلني كازانوفا قليلاً من الوقت بلا اعلان جديد لكي نرحل الى الأماكن الأبعد.

فكرت في تحويل كازانوفا بائع الصحف الى شخصية روائية وأدخله حمام فريدة لكن من المرجح أن يقضي إبن الكلب الوقت كله يستمني على ملابس فريدة ولا يخرج ويعطل السرد وتسلسل الاحداث. أين هو التسلسل في هذه المتاهة التي يضيع فيها بورخيس وفريد الدين العطار ونابليون وامبرتو ايكو وماركيز؟

أقع في الأشياء وقوعاً عميقاً، لا أعرف الوسطية.

*كافكا.

في هذا الشارع كانت عمارات المسلم العربي والكردي والمسيحي واليهودي كما المقاهي تتجاور من كازينو حجي زناد في عمارة النجوم ملتقى التجار والساسة الى كازينو نور في عمارة اليهود، من الباب الشرقي الى ساحة الفردوس التي اسقط فيها تمثال صدام حسين، لكن هذا التعايش تعرض للتصدع في زمن الدكتاتورية وحلّت طبقة رثة قادمة من

أرياف الصحراء وتحول اصحابها الى حراس قصور رئاسية ومخابرات وأمن خاص وتم السطو على عمارات وتحويلها الى أوكار للجنس والتلصص وسجون سرية كالمعبد البهائي الذي سُجن فيه ضحايا مجزرة الرفاق في قاعة الخلد عام ١٩٧٩ بصورة مؤقته، ولم يبق من معبد التوراة اليهودي في البتاويين سوى الانقاض والاطلال، وحلّت في البيوت المهجورة مجاميع من اللصوص والعاهرات والمتسولين والفارين وباعة المخدرات.

في الشارع مظاهرة تندد بالعدوان التركي وقصف قرى حدودية ومقتل مدنيين مزارعين مع لافتة عريضة تطالب بارسال الجنود الى الحدود وفرض الخدمة الالزامية في حين ترفض تركيا هذه المزاعم وتدعي انها قصفت مواقع حزب العمال الكردستاني التركي وان النظام العراقي يريد ترحيل ازماته الى الخارج واشغال الناس عن الفساد المستشري.

ماذا لو ذهب الجنود الصغار، أطفال ليلة الغزو، الى الحدود، في الشتاء الجليدي أو في الصيف المحرق ولم يعثروا على العدو؟ ماذا مثلا لو وجدوا جنود الاعداء يغنون ويشربون الخمور، ويرقصون على السفح الثاني من الجبل أو يصلّون؟ لماذا لم يفعل قائد الجيش بارسال كبير القضاة للتحقيق، من أن جنود الأعداء على وشك الغزو؟ ماذا يفعل كبير القضاة أمام مكتبه العريض غير الصفقات والتسويات بين الوزراء والنواب والمدراء اللصوص، في حين الجنود ذهبوا الى الميدان للبحث عن الأعداء؟ ماذا يقول التقرير السري لجهاز الاستخبارات العسكرية والمخابرات؟

يقول ان الرئيس وقائد الجيش هم أصدقاء قادة الأعداء، بل بدون الأعداء لم يحصلوا على المناصب، وأن قادة جيش العدو الشرقي وقادة جيش العدو الشمالي قد اتفقوا على ألا حرب، فلماذا الخوف من غزو البرابرة؟ وماذا لو طال الانتظار بلا ظهور جنود الاعداء؟ لو ذهب الجنود الصغار الى الحدود سيكبرون في الثلوج والجبال، سيتعلمون أشياء لم يعرفوها من قبل كما تعلم من قبلهم في حروب سابقة، سيكونون أكثر حكمة وسيعرفون أن الوطن ليس النظام،

والأرض ليست السياسة، وكلما نظروا من خلال المراقب والنواظير نحو حدود الأعداء، لا يرون شيئاً غير الضباب أو السراب، ربما سيرون جنود الاعداء يلوحون لهم بالمناديل ومن يدري قد يقترحون عليهم تبادل السجائر والخمور والأطعمة وربما أكثر. لكنهم سيكتشفون ان الحدود كلمة مخادعة، لأنها لا تقع على الطرف الأخير من الجمهورية، وان الخطوط الامامية ليست هنا بل في الخلف، والحدود تعني الحرية، وهم هنا في المكان الخطأ، والبرابرة في الخلف في مقر قائد الجيش، وان الغزو الذي طال انتظاره عبر الحدود كان قد وقع في الحقيقة منذ عشرين سنة، في سنوات ولادتهم وهم هنا يحاربون الوهم، ويشيخون مع الأيام. لن تنفعهم ولادة زهور النرجس في الربيع ولا صيحات طيور الجبال، حتى الحكمة التي تعلموها من سنوات الانتظار لن تنفع، ماذا تجدي الحكمة بلا طرق للاختيار؟

كعملة مرمية في صحراء. لماذا كل هذا الصراخ من الخطباء:

« لأن البرابرة يأتون اليوم،

لماذا تقفر الميادين؟

لماذا يعود الجميع الى منازلهم وقد إستبد بهم الغم؟

لأن الليل قد أقبل ولم يأت البرابرة،

ووصل بعض جنود الحدود وقالوا إنه ما عاد للبرابرة من وجود.

والآن، بدون البرابرة ماذا سيحدث لنا؟

«كان هؤلاء البرابرة كانوا حلاً من الحلول». قسطنطين كافافي.

ظلال العمارات تنعكس فوق زجاج سيارة الفولفو السوداء. تخرج فريدة بشال رقبة شاتوش حريري كشميري بيجي ابيض يميل للاصفر يمكن ان يتحول الى حجاب في لحظة ما. من بقايا وعيه الاخير صفّر كازانوفا ورفع يديه كما لو انه يطلق طيوراً للتمويه. كانت تجر خلفها حقيبة كبيرة قالت انها ستحملها للشقة وتعود. قال كازانوفا موجها كلامه نحوي:

« غزالة وما يصيدونه».

قبل أن تشغل محرك السيارة وأنا الى جوارها أضع حزام الأمان، قلت:

« كوني حذرة من كازانوفا».

التفت إليّ بابتسامة:

« لا تخدعك المظاهر. هذا مع الخصاء العقلي خاصية الجميع يبحث عن من يضاجعه».

« لا أستغرب من مخلوقات العتمة. هل خنتني مع أحد اليوم؟».

« في الطريق اليك فعلتها معك قرب اشارة المرور حتى نسيت الضوء الأخضر لو لا صفارة الشرطي وهو يصرخ بي:

« أنت ثولاء؟ والآن، الى أين؟».

« الى الاتحاد العام للأدباء»

« أين يقع؟ هذا هو المكان الوحيد الذي لا أعرف أين؟»

« ساحة الأندلس».

كانت السيارة تدور حول ساحة الفردوس وتنطلق نحو ساحة الاندلس، ثم نصب بغداد، أوقفت السيارة داخل مقر الاتحاد. قالت:

« لم تقل لي المناسبة؟»

« ستكون مفاجأة لك: أمسية احتفاءً بنصاب قادم من المنفى».

جلسنا في المقاعد الخلفية. همست فريدة:

« هل يعرفك أحد هنا أو تعرف أحداً؟»

« لا أعرف أحداً، ولن يعرفني أحد ولو من بين أقرب الأصدقاء.

الكل في منفي وأسير داخل جلده».

كان المحتفى به يجلس أمام المنصة بقميص ازرق مع سترة سوداء في وضع الخائف بعيون مفتوحة والى جواره ناقد معروف لمناقشة ما يسمى رواية عن تاريخ الشعراء والادباء المنفيين بعنوان «الحياة في القلعة السريالية».

التفتت فريدة إلي بذعر:

« غير معقول؟».

« لم غير معقول؟ نحن في زمن مكب النفايات. ألم يقل شاعر» نحن في زمن اللّنكات»؟ زمن بالات الملابس المستعملة. هذا استعار القاب «المؤرخ والشاعر والروائي» ولم يدخل مدرسة أبداً وتعلم القراءة في حملة محو الأمية ولص هرب من العراق بعد سرقة متجر ونصّاب ومعلن عنه في صحيفة المؤتمر المعارضة تلك الايام انه من أخطر عملاء النظام وأكثرهم قذارة في الصفحة الأولى وتسلسله الخامس والارشيف متوفر».

« المشكلة في الحضور».

« لا مشكلة. هو في مكانه الطبيعي. لنخرج قبل أن أنزف أحشائي».

خارج الصالة تنفست بعمق وكانت فريدة مبلبلة تحاول التقاط انفاسها وقالت:

«كنت أتوقع أن تكون هذه الأمكنة ناجية من العاهات».

« لا مكان للاختباء والنجاة».

« يبدو الحضور كما لو في حفل زور»

« هو كذلك، ومن نظم هذا الحفل يعرف كل شيء».

« والآن أين؟»

« نبحث عن فاشيين لن يعرفوا انهم فاشيون رغم مرور الكثير من الاوقات المناسبة».

كانت سيارة الفولفو السوداء ذات الدفع الرباعي المخصصة للبحث عن جثث قتلى في تلال النفايات وكلاب جائعة وطيور عطشى تخترق شارع النضال وكان جرس كاتدرائية السبتيين تحت وهج المساء البغدادي صامتاً. على الجهة اليمنى المبنى السابق للامن العام، مركز التعذيب الوحشي الذي كنت ضيفاً فيه ثلاثة شهور معصب العينين مع صفاء الحافظ وصباح الدرة وعريان السيد خلف وكفاح محمد مهدي الجواهري وسمير الحلوائي شقيق جاسم عضو لجنة مركزية في الحزب الشيوعي وغيرهم وكنت وما ازال اعمل في القطاع الخاص بلا حزب ولا عشيرة حتى كان رجال الامن يطلقون علي للسخرية لقلب اللامنتمي. الى يسار الشارع القصر الأبيض، دار ضيافة في العهد الملكي، ثم كنيسة القديس غريغور للأرمن في ساحة الطيران. القديس غريغور حكم عليه ملك أرمينيا ثلاث عشرة سنة العيش في حفرة تسمى حفرة فيراب في القرن الثالث بعد الميلاد مع تقديم الماء والطعام له لرفضه القيام بطقوس

تتناقض مع معتقداته الدينية وأطلق سراحه لعلاج ابنته. كيف يتجاور قديس مع مركز تعذيب ودار ضيافة وكاتدرائية ومحل لبيع الادوات الاحتياطية، وفي السابق كان يقع مقر السفارة الفرنسية بقطعة صغيرة برونزية مذهبة يغفو المبنى تحت اشجار اللبلاب ونحن على مقربة أمتار منه في مسلخ بشري؟

*   *   *

أطول مطاردة لحمامة في التاريخ

«حاولي البحث عن موقف سيارات كي نزور أغرب حمامة في التاريخ».

ضحكت فريدة المعتادة على المفاجآت. ركنت السيارة في مكان مخصص ومشينا نحو ساحة الطيران. كانت جدارية فائق حسن مشعة تحت الاضواء. قلت:

« انظري جيداً للقفص في أسفل الجهة اليمنى».

نظرت فريدة بتركيز:

« ما الذي تبحث عنه؟»

قلت:

« القفص مفتوح وفي التصميم الأصلي حمامة بيضاء طارت منه. أين

هي الآن؟».

« لم أفهم».

« سأشرح لك بالتفصيل: منذ عام ١٩٦٣ وحتى اليوم ونحن في حالة حرب ومطاردة مع حمامة بيضاء متخيلة في جدارية، في حرب معها في الواقع وفي الجدارية لأن حمامة السلام البيضاء رمز التوق للسلام. في جدارية السلام لفائق حسن وفي الزاوية اليمنى من الجدارية هناك في النسخة الأصلية حمامة بيضاء خرجت من القفص كرمز للحرية والسلام، كما في النسخة القديمة، الجدارية تعكس خروج المجتمع العراقي بكافة تكويناته للتغيير لكن الحمامة لا وجود لها اليوم فأين طارت الحمامة البيضاء؟ بعد الإنقلاب على الزعيم قاسم في شباط عام ١٩٦٣ فطن الانقلابيون إلى خطورة الحمامة البيضاء في النصب يوم كانت الحمامة البيضاء تعني رمزاً من رموز اليسار في العالم

ومحوها من اللوحة حتى اليوم».

كانت فريدة تصغي بكل عمق وسط نداءات الباعة والسيارات. تابعتُ:

«كان أول من رسم الحمامة البيضاء كرمز للسلام هو الفنان بيكاسيو عام ١٩٤٩ كشعار للمؤتمر العالمي لمناصري السلام،كرر رسمها بأشكال مختلفة لكن الشاعر لويس اراغون هو من اختار الشكل الأخير الذي عرفه العالم ، عن تلك الحمامة يقول الروائي الروسي إيليا أهرنبيرغ مؤلف

رواية «ذوبان الثلوج» التي هزت عرش الاتحاد السوفيتي كصرخة ضد القمع بعد وفاة ستالين في وسط الصمت: كنا نتناول الطعام في مرسم بيكاسيو يوم إفتتاح مؤتمر السلام في باريس،رزقت زوجته ذلك اليوم بطفلة إسمها فالوما وتعني بالاسبانية الحمامة، كنا نحن الثلاثة أنا وبيكاسيو وبول ايلوار الشاعر، قص علينا بيكاسيو كيف كان والده الرسام يرسم الحمام كثيراً ويترك له إنهاء اللوحة . عندما رفع الانقلابيون الحمامة من الجدارية لم يكن الفنان فائق حسن في بغداد بل في باريس، وإلا كان سيُعتقل وقد يقتل في حملة قتل وحشية، بعد إنقلاب عبد السلام عارف في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ ونهاية زمن الحرس القومي عاد فائق حسن من باريس، طلبوا منه إعادة الحمامة للجدارية، لكنه رفض بقوة قائلاً: » لن أعيدها لكي تبقى وصمة عار“.

ظلت الجدارية خالية من الحمامة البيضاء منذ ذلك التاريخ وحتى اللحظة، مع تاريخ العراق المتقلب ودورة الأجيال، لم يعد أحد يتذكر حكاية الحمامة البيضاء رغم وجود القفص المكسور الذي طارت منه. نحن في المعركة نفسها: القفص والحمامة والحرية والقتلة».

تنهدت فريدة بعمق وهي تقول:

« يمكن قتل الحمامة لكن من المستحيل قتل حلم الطيران».

« قلت لك من قبل أنت عجوز بدو».

مررنا سريعاً من أمام سينما غرناطة. هذا االمكان كان يعج بعشاق

الافلام الرصينة والصالة مؤثثة بالاثاث الايطالي والامريكي ومقصورات للعوائل وعرض فيها فيلم «مدافع نافارون» مثلت فيه الممثلة اليونانية ايرين باباس في الستينيات التي لعبت دور هند في فيلم الرسالة وهي من أكل كبد الحمزة.

« هل تعرفين إيرين باباس؟»

« كيف لا؟ آكلة الكبود».

فوق رصيف السينما زمر من باعة الملابس والنفايات والمبنى المصمم على الطراز الايطالي على وشك السقوط. قرع في اذني، في المرور الخاطف، جرسها القديم المعلن بدء الفيلم كما لو الى حفل، ومن خلال رقصة زوربا للمثل انتوني كوين عرفنا ان الانسان يمكن ان يتكلم بجسده وخرجنا من الفيلم وقد تعلمنا لغة جديدة وصرنا نتحدث راقصين لا نعرف ماذا تخفي لنا الايام.

« الشباب اليوم مغرم بالعاب القمار مثل سلوتس وبوكر وبلاك جاك».

« تخيلي أنني لا أعرف سوى الدومينو».

« تسطيح منظم».

قبل عبور نصب الحرية في اتجاه شارع السعدون، قلت:

« لا نهب بلا تسطيح ولا يمكن سرقة بستان والناطور يقظ. هؤلاء

كما سرقوا المنفى، سرقوا الوطن».

« أعتقد قرأت يوما عنوان رواية بهذا العنوان كتبت قبل الاحتلال».

لم أُعلق، وعندما خففت السرعة لكي تستدير نحو الشارع الفرعي في العمارة، فكرت في أن فريدة أعمق مما تخيلت، ليس لذاكرة قوية فحسب بل لمهارة في ربط ظواهر تلوح لارابط بينها وهذا هو العقل المركب.

« نترك السيارة هنا. ماذا ترى؟ نصعد أم ننزل للتسكع؟».

« نصعد ثم ننزل».

قلتها بطريقة بطيئة وقحة. قالت ضاحكة:

« ملعون».

أضافت وهي تغلق باب السيارة وتحمل حقيبتها الصغيرة:

« بالمناسبة رأيت لوحة لمارك شاغال بعد ملاحظة منك عنه في تتبع لوحاته تسمى» فوق المدينة» تصور رجلا وامراة هما الفنان وزوجته بيلا يطيرون فوق فيتيبسك مسقط راسهم فوق منازل متداعية وعتمة فجر ناعمة كحلم يقظة هادئ والرجل مقطوع اليد لكنه يمسك المرأة باليد الأخرى بحنان وشغف دونما اكتراث للعتمة أو البرد لكنه ينظر الى الخلف».

« مارك وبيلا عاشا قصة حب رائعة وهذه اللوحة تجسد الفرح والانفلات من الجاذبية ولا أعتقد أن رجلاً يهرب مع امرأة دون أن يلتفت الى الخلف. جربتُ هذه المشاعر».

« في حياة كل رجل عاشق مارك شاغال».

قلت:

« وفي قلب كل عاشقة بيلاّ».

« من الصعب الزواج من رجل مثلك لا يكبر».

« أحب فردينان سيلين الراقصة الأمريكية اليزابيت كريغ وأهدى لها روايته: رحلة في أقاصي الليل:

«إلى اليزابيت كريغ

حياتنا سفر في الشتاء وفي الليل،

نبحث عن معبر لنا،

في السماء حيث لا شيء يلمع».

في تعليق صريح عن سبب رفضها الزواج منه قالت:

لا أريد أن أكون امرأته العجوز وانا أشيخ وسيلين يبقى طفلاً».

خرجنا من الشارع الفرعي الى شارع أبو نؤاس في مساء هادئ

وملامح حياة تدب بحياء والنوارس تنقض من فوق جسر الجمهورية على النهر.

« أشعر بالجوع».

« هل تناولت شيئاً اليوم؟ أنت تنسى؟».

« ثلاجتك تكفي لفرقة شحاذين».

« هذه رخصة حمل سلاح قانونية باسمك لمسدسك الذي نسيتُ نوعه».

كان مسدس فريدة صغير الحجم تركي الصنع يسمى جانيك **TP9** يسهل حمله من قبل النساء في الحقيبة اليدوية ولرجال الاستخبارات لسهولة الاخفاء أضعه تحت إبط الكتف اليسرى بجراب جلدي رمادي يناسب مختلف ألوان القمصان.

فجأة، أمسك بي رجل من الخلف بقبضة صارمة. التفت. قال بلهجة عنيفة:

« هويتك بسرعة».

تفحصت وجه مقدم الشرطة بامعان وهتفت:

« هو أنت؟ تحقق حلمك».

تعانقنا ببرود. قال مازحاً:

« لن أطلب عقد زواج لأنني أعرف طريقتك في الخطف».

قالت فريدة بجدية:

« حتى لو طلبت العقد، فهو متوفر».

علق المقدم بلطف:

« طبعاً، من سوق مريدي يمكن الحصول على شهادة بروفسور للبغل. كيف حال ماريا؟».

« تسأل عنك».

قال:

« رغم كل ما جرى بيننا لكني أعترف الآن أنك كنت على حق في موقفك من قضية التغيير».

حاولت نقل الحديث الى موضوع آخر:

« اعطني هاتفك لكي نلتقي في فرصة أفضل خارج العمل».

دونت رقم هاتفه ولا أخفي أنه كان أكثر أدباً مما توقعته. قبل أن يفتح باب سيارة الشرطة لوح لي طويلاً.

* * *

خيول فالديز

من شارع فرعي يلوح جمهور أمام سينما سميراميس. كان فيلم خيول فالديز هو الفيلم الأخير الذي شاهدته في بغداد وهو من بطولة تشارلس برونسون ممثل أفلام الغرب الأمريكي، الذي قال عن وجهه:

« كمنجم للصخور تم تفجيره".

في زمن حرب الثماني سنوات، لم تكن هناك خيارات غير هذا النوع من الأفلام. كانت أمطار آذار تنسكب فوق شارع السعدون حيث تقع سينما سميراميس والحرب في عامها الثامن ولا من أفق، وفي زقاق قرب السينما مقهى صغير يتناوب الجلوس فيها الفارون من حملة مطاردة سياسية ومن رجال

الامن الذين لا يعقلون ان فاراً يجلس قربهم ويقرأ جريدة الحزب المركزية للتمويه وهي أفضل مكان للإختباء. صالة السينما غاصة بالجمهور لا فكرة عندي عن الفيلم ولكن لقضاء الوقت حيث في الليل سأذهب الى محطة القطارات في بغداد الى الجنوب، الى الحرب وكان قرار الهروب محسوماً هذه المرة بعد محاولات عدة. خيول فالديز سيكون الفيلم الأخير ولم أعرف يومذاك أن الفيلم مأخوذ من رواية «خيول فالديز» لـ هوفمان الروائي الأمريكي عن مربي خيول البرية ومروضها جينو وهو برونسون، يعيش منعزلاً في اسطبل للخيول ومعه صبي مشرد يساعده في العناية بالخيول، يلتقي جينو بكاترين ويقرر الزواج لكنه يعود يوماً الى المنزل ليكتشف ان عصابة قتلت كاترين إنتقاماً منه. لم يعد لدى جينو ما يملكه، توقفت الحياة عند هذه اللحظة، جارلس برونسون وجد في الرواية تطابقاً مع حياته وعشق الدور لأنه هجين كما الخيول، ليتواني الأصل وأمريكي في زمن ذهنية العرق الأبيض والمكارثية الامريكية والارهاب الثقافي والعنصري والسياسي وتم توجيه تهمة التآمر والخيانة لمئات المثقفين والفنانين كشيوعيين، مما اضطر جارلس برونسون الى تغيير اسمه الحقيقي بوتشينسكي الى برونسون لأن الاسماء تحدد هوية الشخص في أي زمن إرهابي. يقرر جينو او برونسون تصفية الحساب مع القتلة ويفعل، يشعل النار في كل مكان، يعود للإسطبل ويفتح الباب لخيول البرية أمام

دهشة الصبي الذي يمنحه جوادا. يقول له الصبي بحزن:

"خذني معك".

"لا، طريقنا مختلف".

يشعل النار في المنزل ويغادر على جواده في البرية وتلوح أمامه جبال رمادية في الغسق. للمرة الأخيرة يتوقف وينظر من بعيد الى النار تحرق كل شيء، المنزل والحلم والاسطبل، لكن الى أين؟

عندما عبرت حقول الالغام للهروب من الحرب في الغبش الأزرق الضبابي وعلى جانبي الدرب حقول القصب والحلفاء والدغل، ونظرت للخلف كانت الحرائق مشتعلة في الخطوط الامامية. قلت الخطوط الامامية في بلد صارت كل عتبة وسرير وحلم وشارع خطوطا أمامية.

كانت فريدة تبدو مستمتعة بأجواء الشارع والليل والمرور الانسيابي للناس فوق الرصيف الموازي للنهر وقد اكون جزءاً من الحالة النفسية قرب فندق»السفير« الذي كانت واجهته الزرقاء في نهارات الصيف القائظة تبهرنا وتطلع طاقة الكراهية فينا لاننا ننام على المصاطب تحت الاشجار حتى ان الشاعر الحصيري طوب مصطبة تحت ظل شجرة كمُلكية له، سألتني:

« هل تعرف مقدم الشرطة؟».

« أعرفه في المنفى يوم كان ببغاءً في قفص ومخصياً عقلياً».

« هل تعتقد أنه تغير؟».

« لا أجزم بشيء. لا أحد يبقى كما هو أمام هذه العواصف. سأشرح لك كيف كان».

« أتذكر مقالة لك حول الأمر في صفحتك».

« صحيح. وضع في يدي بطاقة تحمل اسمه ومكان عمله: مديرية الشرطة العامة. قد يكون مفيداً لو ساعدنا في الدخول الى قسم» جرائم الشرف».

« مصنف سري للغاية».

« بل هو أكثر الأحداث علنية لدرجة وصل مكبات النفايات».

من مقهى في الحديقة بين رصيف الشارع ورصيف النهر، تنبثق أغنية زهور حسين:

« أخاف أحجي وعليّ الناس يكلون، شيكولون؟ تولع بالمحبة وصار مجنون. خل يكولون».

قالت:

« لم أرتح لنظرة الإرتياب في عيني مقدم الشرطة. إفتتح حديثه

كما لو يتساهل بغض النظر عن جناية وجودنا معاً بطريقة غير لائقة».

« لو دخلنا في هذه الدهاليز، فلن نخرج منها. كان يفعل ذلك من قبل ويوم عرفته. سأشرح لك لو همست في أذني بكلمة بذيئة».

ضحكت فريدة ووضعت يديها على ركبتيها منحنية واقتربت وهمست.

ثم قالت:

« فهمت؟».

« شعرت بصعقة برق. لماذا تبدو هذه الكلمات في مكان مفتوح أكثر حسية؟».

« ليس مع الجميع».

وأضافت فجأة:

« هل تعتقد أننا تحت مراقبة خفية من طرف ما؟ إحساس داخلي بالخطر يقرع بعض الأوقات».

« جسد الانسان محاط بجهاز استشعار عندما يقترب شخص ما منك لا يتطابق مع تكوينك النفسي، وفي حالات بالعكس نشعر

بالارتياح من مرور عابر لشخص آخر».

« نحن نتلقى رسائل كثيرة من داخل الجسد تتعلق بالصحة والخطر لكن من النادر أن نصغي».

لوّح لنا طفل في عربة أطفال بدمية أرنب أبيض تدفعها سيدة. فكرت في ان هذا المرور الخاطف يلخص قضية كبيرة. الحرب والسلام. كان انسياب العربة يتناغم مع مجرى الحياة الهادئ ومع طيران النوارس ومع ليل طري لكن ماذا خلف كل ذلك؟ قلت:

« الى أين نتجه؟».

« الغاية ليست مكاناً نصل اليه».

« بل طريقة جديدة نكتشف بها الأشياء. عبارة هنري ميللر الثابتة على صفحتي. ميللر بال في المحكمة يوم صدر قرار منع روايته: ربيع أسود».

« حسناً فعل. لا يبدو عليك أنك شاركت في حربين خمس عشرة سنة: سبع سنوات في الجبال وثماني سنوات في الجنوب».

«وهل يبدو عليك مظهر محامية تضج بها قاعات المحاكم بالصراخ؟».

« كما لا يبدو عليك مظهر رجل يصعد الجبال تحت زخ

الرصاص».

« هل تعتقدين بذلك؟»

« أجزم. جسدي لا يكذب. الصحراء تعرف عواء الذئب. لم تقل أين عرفت مقدم الشرطة؟».

« سأروي لك أين».

*   *   *

مقهى البجع

كان يدخل مقهى «البجع» الاسكندنافي على البحر بشارب متهدل ودفتر كبير تحت الابط ويمسح المقهى بنظرة متعالية بحثاً عن ماريا نزيلة مصح عقلي بسبب الادمان على المخدرات وعندما أكون موجوداً يسألني دون أن ينظر إلي لأن هذه من أصول الهيبة، عن ماريا وغالباً لا أجيب لأن كل ما فيه من شارب ودفتر وغطرسة يتناقض بل يشوه المكان واطلالة البحر وعفوية الزبائن وحتى اسم المقهى البجع.

الدفتر والشارب والنظرة المتعالية جزء من الهيبة وثياب الكاهن كعصا الجنرال، الدفتر الحزبي سلطة لأن فيه الأسرار ويبدو مظهره خارج هذا المكان الأليف والعفوي. من خلال تجربة مع هذه النماذج تكتشف أنهم يحاولون فرض قواعد المكان القديم على المكان النظيف الجديد للسيطرة، كما يفعل خنزير في حديقة مشرقة يحولها الى مستنقع لكي تنسجم معه.

مرة طفح به الكيل عندما لا أجيبه في المقهى فقال لي دون مناسبة:

" ستصلنا عنك المعلومات".

عندها تحولت الى وحش بشري وكدت أقلب المقهى والكراسي والبحر وأبلع الزجاج:

« أغرب عن وجهي ألعن أبوك لا أبو المعلومات ومن يكتبها ولا أبو الحظ الأسود الذي رأيتك فيه هنا».

حكاية ستصل عنك المعلومات من قاموس الاحزاب ورجال الامن،

ولم نسمع هذه العبارة مع بشر عشنا معهم سنوات في عمارة واحدة وحائط لحائط، مع أن الانسان طاقة تحولات كل لحظة ومن الجريمةإختزاله في صفة واحدة أو موقف واحد كالعقل الاختزالي المتخلف.

ماريا لا تخرج من مصح الادمان إلا لتعود اليه لأنها تعود للحثالة نفسه.

مرة قالت لي ماريا ضاحكة:

" تعرف إن الدكتاتورية منقذة لنا نحن الحشاشات؟".

" لا، نوريني".

«قبل مجيء الفارين من القمع كانت مصحاتنا العقلية تعج بمدمنات المخدرات والعزلة والهجران، لكن مع موجات الفارين وفرتم للدولة أموالاً طائلة. أنتم أبطال في السرير»

« طبعا، مدام ماريا، وأين نكون أبطالاً؟»،

زنجي فرانز فانون الذي كان يحلم بشقراء للهروب من هويته ولونه بعد ان أحدث الغرب الاستعماري انحرافا وجوديا في نظرته لنفسه، صار اليوم هو العربي والمسلم.

أين نكون أبطالاً؟ في غرف الدخان والعرق والمقاهي؟ سنعود يوماً الى الوطن، أبطالاً. المعركة في السرير مختلفة رغم انها تخاض بأسلحة أخرى.

« لكن ماريا هل الرفيق يناضل جيداً؟"

ترجع للخلف غارقة في الضحك وتقول:

« ليس دائماً خاصة عندما يتذكر صدام حسين يصاب بالخصاء العقلي».

قلت:

" «الخصاء العقلي موجود قبل ولادة صدام وبعده «.

« أنتم تسمون كل من يدافع عن حريته الشخصية وكرامته

مناضلاً. لا يمكن التصفيق لكل عصفور يطير وشجرة تثمر وغيمة تمطر».

«بل نحن نعتبر كل من إختفى في جحر جبلي وهرب من الحرب وكل من نام في زريبة مناضلاً».

بعد شهور التقيت بماريا في الشارع، أقبلت ضاحكة مرحة خلاف العادة وسألتني عن الرفيق فقلت:

" عاد للعراق وحصل على راتب خدمة نضالية وصار ضابط شرطة"

" عن أي نضال؟".

" عن السياحة فوق جسدك وتقطير العرق المنزلي والدفتر والشارب».

« وأنت؟ ".

." أنا أعمل في الثقافة والسياسة قطاع خاص".

ونحن نصعد سلالم العمارة الى الشقة، كنت هذه المرة قد سبقتها في الصعود وكان الظلام يعم المكان، من الظلام قد ينبثق حدث ما، الظلام زمن عصور الكهوف والغابات، لكن عطر فريدة وهي ترتقي السلالم حوّل الظلام الى حديقة آمنة، كما يشعر طفل

بالامان قرب الام ولو في قلب الخطر. ايقاع خطواتها كقطرات مطر في غابة عذراء، سقوط أوراق خريف، نشيد اطفال من قلب السراب حيث لا نتوقع حضور أحد أو علامة. ارتميت فوق الاريكية وجاءت لترتمي فوقي. بقينا صامتين حتى نهضتْ وكان عطر انوثتها يغمر المكان. عطر متنقل. عاصفة أجراس كنيسة منعزلة في الادغال. حداء بدوي في الصحراء. عواء ذئب. ألم تقل هي إن الصحراء تعرف عواء الذئاب؟ هل كان ايغوشي يعرف ماذا يعني ان تكون ذئباً تعوي في صحراء؟ وهل كان غابريل ماركيز في» ذكرياتي مع غانياتي الحزينات» عندما تناص مع « الجميلات النائمات» يعرف أن إيغوشي الياباني الصوفي المحارب ليس هو عجوزه المثقف الهرم؟ ليس حتماً أن تحلم جوار امرأة نائمة، يكفي أحياناً أن تحلم وأنت تمشي خلفها أو قربها في حافلة أو مقعد.

طلقات نارية في الشارع. قالت:

« لا ترفع الستارة. يحدث احيانا ان يأتي للشارع بعض الأوغاد ويحرقون محلات تجارية لأنها لم تدفع لهم رشوة».

وأضافت ضاحكة:

« مع إنك استعرت يوما عبارات ايزابيل الليندي: الأوغاد هم الجزء الألذ من الحكاية».

« في الحكاية لا في الواقع».

« سأتصل بمطعم القمح في فرع مجاور لسينما السندباد لأنني أشعر بجوع كارثي وربما أنت. المطعم يقدم التمن والمرق والسمك البني على التمن الاحمر وباقلاء بالدهن مناسب لنباتي مع خدمة توصيل».

« باقلاء بالدهن مع سمك بني ورز وفاصولياء او باميا وخبز حار ولبن ولتتقدم بعدها كل جيوش العالم.

كرزات وتتن وشاي وبندقية وجبل ومرحباً بالجيش العراقي كما ردد شاعر كردي».

ضحكنا بامتلاء ليس من شيء بل من ضجيج المفارقات كل لحظة لكن إطلاق النار لم يتوقف رغم صفارات سيارات الشرطة قالت:

« يهربون الى شوارع فرعية في البتاويين ومن الخطر مطاردتهم. بعضهم جعل من كنيس منير طويق او مير تويك اليهودي المهجور ملاذاً. هذا الكنيس كان مركزا لتسجيل اليهود الراغبين بالهجرة الى اسرائيل منتصف القرن العشرين بعد حوادث الشغب المعروفة باسم فرهود اليهود».

علقتُ:

« تلك العملية نظمها جهاز الاستخبارات الاسرائيلي لدفع اليهود الى الهجرة كما اعترف منظم العملية شلومو هليّل عراقي الاصل في كتابه»عملية بابل **Operation Babylon**» الذي صار رئيس الكنيسة ووزيراً وأطلق على العملية: عيزرا ونحميا تبعاً لاسطورة».

قالت:

« هل رأيت كيف أن طلقاً نارياً في الشارع فتح الذاكرة على تاريخ طويل ومزور؟ طريقتك الخاصة في التفكير: الفكرة كحبة قمح قد تتحول حقل سنابل لو تم تفجيرها».

« لماذا تتعطل عندي هذه الحاسة عندما أعوي في الصحراء؟».

كانت تتصل الان بالمطعم مع التركيز على باقلاء بالدهن واضافت له البيض مع فلفل أخضر وملح بحري بلا ثوم.

« هذا يكفي، توقعت أن تطلبي مع الطعام عبوة ناسفة».

« لو لم توقفني لما توقفت. عدوى لغتك»

* * *

الفجر الرمادي المستمر

الصبية التي تركتها ذلك الفجر الرمادي صارت الان امرأة تمشط شعرها الغجري الاسود امامي. في دفتر عناوين منازل ومحلات وأصدقاء ومؤسسات وأرقام هواتف تعود الى ما قبل الهروب الى المنفى لكنها لم تعد صالحة للاستعمال لان الأرقام تغيرت واصحابها تفرقوا، ماتوا أو قتلوا أو هاجروا أو اختفوا، وعناوين المنازل فقدت صلاحيتها لهجر المنازل او خرابها او الانتقال منها. من بين أرقام الهواتف القديمة رقم شقيق فريدة. عالم آيل للزوال وفترة متهاوية ومن العبث النفخ في رماد الماضي. نبدو في كل هذه الحكايات كأطفال يتامى أو متخلى عنهم قذفوا الى عنف الشوارع.

خلال سنوات كانت تقول دائماً في أحاديث البريد الالكتروني إنها كانت صغيرة يوم شاهدتني للمرة الأخيرة أحمل الحقيبة في

حرب الخليج الأولى محني الظهر وأنعطف في الشارع وأختفي إلى الأبد:

" ما معنى الى الأبد؟".

« لم تظهر بعدها وقيل إنك أُعدمت في ميدان تدريب عسكري وكنت تبكي وتتوسل لكنهم أطلقوا عليك الرصاص ومت هههه حكاية الأمن لترويع الأسرة».

« أعرف، لكن شيئاً ما مات فعلاً يوم خرجت، متى خرجتُ للمرة الأخيرة؟».

الفجر والشوارع بلون الرماد وحيطان الطين مغمورة بالضباب في زمن المصابيح الزرق وصفارات الانذار، زمن المآتم والجنازات وحفلات إعدامات الشوارع والحب المحرّم. كنا في شهر آذار ١٩٨٨».

تذكرتُ كما اليوم وكتبتُ:

" في ١٥ آذار ١٩٨٨".

" تماماً كما عرفت من رواية لك".

" الأعزل؟".

" وسنوات الحريق".

بعد توقف قصير لانطفاء الكهرباء عادت تكتب:

" أنت الوحيد الذي إطلع على مذكراتي أو ما يمكن تسميتها مذكرات».

قاطعتها:

«إنها أروع مذكرات كتبتها فتاة عراقية، أنا سعيد بذلك لكن المؤسف أنك تصرين على نشرها بإسم مستعار».

" قد لا تكون سيئة تماماً لكنها محاولة».

." غير صحيح هذا الكلام. عمل آسر:"

تكتب واسمع في الخيال صوتها منكسراً:

" تعرف أن خيال الأنثى ينشط في أزمنة القمع؟".

" صحيح لكن خيال الرجل أيضا ينشط كتعويض عن حياة مفقودة".

توقف قصير ربما تبحث عن كلمات:

«كنت بين خيارين إما أعيش الحصار النفسي الخانق وأذبل بصمت. عالم المرأة عميق لكن الناس لا ترى غير السطح».

كتبتُ بلا مناسبة لكي لا أتوقف:

” «بلا شك ترتدين العباءة وفي صورتك الاخيرة تلوحين في الشارع

كظل أسود في ظهيرة صيف في شارع مغبر».

« نعم، نعم، شبح أسود يفتقر لمهابة الشبح» :

« في سيرتك « سنوات السوء» وهو عنوان أولي مقترح كما تقولين،

وجدت شخصيات كثيرة أعرفها بل وجدت نفسي، رغم تمويه الأسماء كيف تمكنت من التوغل في عالمنا السري وأنت صبية في ذلك الوقت؟».

تكتب علامات ضحك وتضيف:

يوم كنت تزور أخي وتجلسان غرفته، كنت أختلس السمع لما تتحدثان به هههههه».

” ملعونة، وكنا نقول أشياء كثيرة سيئة“.

«لكن كنتما تقولان أشياء كثيرة رائعة شكّلت ذاكرتي، سأعطيك مثالاً: في مساء ماطر جئت أنت حزيناً، دخلت غرفة أخي وتحدثتما عن أمر مؤلم لا أريد الكلام فيه الآن لكي لا أفتح جرحاً قديماً».

عرفت عن أي شيء تتكلم فقلت:

« قرأت سيرتك إذا كانت لنا سيرة خاصة لان الخلفية حرب او غزو او حصار او ارهاب، أقول لك الصدق لو لم أعرفك جيداً لما وثقت في أنك من كتب هذا العمل الباهر. كيف أتصرف بها؟».

" أتركها لك لكي تقرر".

شعرتُ بثقل الأمانة كتبت:

" لماذا النشر باسم مستعار؟"

ردت حالاً:

« هو السبب نفسه لخروجك الأخير في ذلك الفجر الرمادي. نحن في زمن واحد مشوه ولا قطيعة مع الماضي، يمكن أن تكتشف كثافة ودوران الزمن كيف صارت الصبية امرأة تتحدث الى الراوي في منفى؟».

" نحن اليوم في الفجر الرمادي نفسه بلا صبح".

« لنغير الموضوع لكي لا نبكي معاً خساراتنا».

توقفتْ وشعرتْ أنها تنشج بعد صمت. كانت تتكلم من غابة مطرية، النضج والرصانة والجمال، كنت أشم رائحة عشب وزهور برية فكتبتُ:

«ربما تقع مصادفة مميتة فكتبت ملاحظة في أول صفحة في أن هذه سيرتك وكتبت اسمك».

" ماذا تعني مصادفة مميتة؟"

«كل أسباب الموت متوفرة اليوم، لكن قولي لي لماذا كنت أنت يقظة للمرة في ذلك الفجر الرمادي؟».

«كنت ذاهبة لشراء الخبز من الفرن المجاور، تتذكره؟».

" طبعاً، وعملت فيه لاسبوع".

« أتذكر يوم خرجت من السجن».

« خروج لم يكتمل. الكاتب في سجن ومنفى من يوم حمل القلم».

" ضريبة من هو خارج القطيع ولا يُصنّف. انطباعي أنك لم تبذل جهداً لبناء علاقات في الخارج».

« أبداً. كنت طبيعياً مع الجميع وكنت أعتقد أن الآخرين يرون جزءاً من داخلك كما تراه لكن اتضح لي أنهم لا يرون صورتهم الذاتية وأبعد من ذلك يرون في ثقتك بنفسك وعفويتك وشجاعتك ما يُخيفهم «.

« هرمان هيسه قال كلاماً مشابهاً».

قلت لتغيير دفة الحديث:

"كيف تتذكرين كل ذلك وساط الانقاض؟".

«كنا نلعب في الشارع لعبة القفز على الحبل، فجأة ظهرت أنت وقد توقعنا أنك لن تخرج».

هل خرجنا من ذلك السجن الواسع؟ قلت مع نفسي.

" «جميل أن هناك صبية تتذكر هذه الاحداث. فكرت في أن جيلك عاش المقاومة بالحيلة».

قاطعتني بسرعة:

«المقاومة بالحيلة كتاب جيمس سكوت .كيف يهمس المحكوم في ظهر الحاكم، الصمت، النكات، التخيل والحلم، إستراتيجية الضعفاء أمام قوى عنيفة متعددة،الكتابة السرية الاشارات والتلميح وحتى الموافقة الإضطرارية هي رفض. هل نسيت كيد النساء هههه؟».

كتبتُ بسرعة:

« المقاومة بالحيلة خاصية عامة. في مراحل الخوف والزجر والعنف ينزل الجميع الى قيعان نفسية عميقة وهناك بالتخيل يبنون عالماً موازياً يمكن الحلم فيه بسرية تامة، مكر الرجال أيضاً هو

اسلوب تنكري في مواجهة خطر».

” صحيح لكن ليس كالأنثى التي عليها الغاء كل وجودها“.

غابت دقائق ثم عادت فجأة:

«آسفة للتأخير لانقطاع الكهرباء. مع أنني لا أريدك أن تأتي لكني أتمنى ذلك. شعور باليتم كما لو أنني في فراغ لا أمسك فيه بشيء مع كثافة الأشياء حولي».

صمت طويل. شعرت أنها تنشج.

دونت عبارة غاستون باشلار في ورقة:

« هل كان العصفور يبني عشه لو لم يكن يمتلك غريزة الثقة بالعالم؟».

لكني لا أعرف لماذا تذكرت عبارة باشلار.

* * *

بغداد لن تتزوج الجنرال

لا تختلف حكايتها عن حكاية صفيّة. تعرفت لأول مرة على صفيّة في منزل أحد أقاربي وعندما كنت أسأل من تكون؟ كانوا يقولون هذه بنتنا، لكني سمعت قصة مختلفة في ما بعد إن صفية الطفلة ظهرت وقت الغروب من البرية لا تعرف من أين جاءت والى أين ذاهبة، بكلمة أدق مشردة، عاشت في بيت يوسف زوج جدتي الذي كان يرعى في الحقل، يوسف أسد البراري وهيبة قومه بلا مشيخة ومهذب الى درجة الابهار، شجاع بلا غطرسة، في زمن الاقطاع كما عرفت حاول الشيخ طرده وضربه لان قطيعه دخل الحقل، لكنه سحبه من فوق فرسه ووضع خنجره على رقبته أمام الحاشية المصدومة، منذ تلك اللحظة طلب منه الشيخ أن يكون من حراسه لكنه رفض بلطف لأن يوسف نفسه شيخ بلا مشيخة، سيد بلا سيادة وهيبة رجاله وحكيم البراري وكلما زرت منزل يوسف في ضاحية

بغداد الجنوبية، تهرع صفية للباب كطفلة مسرورة، لا تتكلم إلا قليلاً وتسكن في كوخ صغير، لا أحد يعرف كيف تعيش ولا عالمها الداخلي، لا أحد يقترب منها كما لو أنها أغلقت على نفسها حياتها الخاصة وقد يكون السبب فقدان الذاكرة لسبب مجهول، ومع الوقت صارت تتذكر وقائع قديمة مبهمة، وقد طاف يوسف القرى بحثاً عن أهل لها فلم يجد.

بزغت صفية من البراري مثل أي كائن بري، لم تقترب من أحد من زوار المنزل وكلما زرت يوسف أحمل لها بعض الهدايا الصغيرة، مرآة لأنها طلبت ذلك وثانية جلبت لها مشطاً ودمية أطفال وفي بعض الاحيان حاولت تعليمها القراءة فلم أفلح.

لا تحتاج صفية الكائن البري القراءة ولا الكتابة، لأنها هي نفسها كتاب مغلق، حاولت مرات البحث عن ثغرة للدخول الى عالمها وفشلت ومرة أهديتها أقلاماً ملونة ودفترا للرسم، محاولة للدخول الى عالمها فلم أجد شيئاً.

صفية ضاحية مجهولة وعالم بري نقي وآخر كاهنات بلاد النهرين وفي المرة الأخيرة ذهبت لوداع يوسف وكان قد تجاوز التسعين عاماً لكنه الفتى نفسه بقامة منتصبة، أخبرته بوضوح أنه لن يراني مرة أخرى، كان يحاول طوال الوقت تحريك جمرات الموقد عادته عندما يفكر بصمت، ولم يقل أكثر من:

« توكل".

ذهبت الى كوخ صفية وهرعت سعيدة كطائر فرح بجمالها البري النظيف وخجلت من أن أقولها لها وداعاً، جلست على الحصيرة ولم أعثر على المرآة، عندما سألتها قالت:

" كسرتها".

صفية لا تريد رؤية وجهها، لم يعجبها شكلها لأنها تعتقد أن جمالها في الداخل أجمل من الخارج وهي جميلة في الحالتين ولم أر أبداً بشراً يمكن رؤية عالمه الداخلي النظيف مرسوماً على وجهه كما هي صُفية:

" هل تحتاجين الى شيء؟".

بحياء طفولي قالت:

" أريد أن أخرج معك للمدينة".

لم تخرج في حياتها للمدينة ولم تمسك نقوداً، لم تعرف النزهة ولا لعب الاطفال، لا أعرف كيف تخفي مشاعرها كلغز.

قلت محرجاً:

" في يوم آخر".

لم تعلق لكني شعرت وأنا أنهض لأغادر أنني مثقل بوعد لن

أستطيع الوفاء به، ربما ستعرف هي أولا تعرف بعد فوات الأوان، كان وداعاً ثقيلاً وأوصلتني للباب، غادرت دون النظر للخلف.

عندما كانت دبابة أمريكية فوق جسر الجمهورية في التاسع من نيسان ٢٠٠٣ تطلق النار، وكنت أتابع المشهد الدامي من محطة CNN مباشرة، والثلج يهطل خلف النافذة، كان هناك في اليوم نفسه حفل زفاف صفية. مات يوسف وعثرت زوجته على رجل كضمان لا تعرفه صفية، رفضت الزواج.

طبول فرح في المنزل، دبابة أمريكية تطلق النار على فندق فلسطين، ميريديان سابقاً، وتقتل المصور الاسباني خوسيه كوسو والأوكراني تاراس بروتسيوك.

طبل عرس ايقاعي متواصل. رصاص فوق الجسر، هنا عرس وهناك مذبحة، صفية ترفض زواج الاكراه، كانت بغداد نفسها تخضع لحفل اغتصاب، عندما حان الوقت لأخذ صفية الى بيت العريس، وجدوها منتحرة.

كتبت في اليوم نفسه مقالة:

«بغداد لن تتزوج الجنرال».

* * *

متاهة الكولونيل

بعد العشاء فكرت في الاتصال بالعقيد حازم في المستشفى. رن جرس هاتفه ثم جاء صوته عميقاً كما لو أفاق من حلم أو كابوس:

« هل كولونيل حماية القصور الرئاسية على قيد الحياة؟».

في اللحظة الأخيرة أوقفت لساني من عبارة:

« الأطياز الرئاسية».

« بخير وشكراً. يبدو أنني سأبقى أكثر من المتوقع».

« السبب؟»

« قد يكون الجرح ملوثاً من الرصاصة».

« مؤسف. هل تحتاج الى شيء؟».

« لا، شكراً. تمتعا بالوقت لأن هذه الحكاية طويلة قد لا تنتهي

بسنوات».

« أتفق معك وتاريخنا تاريخ مصادفات وحماقات ونزوات قد تقلب الوضع كله بلا توقع «.

« معك حق كما حدث أن راقصة ملهى كانت تعرف ساعة الصفر في انقلاب الثامن من شباط عام ٦٣ على الزعيم قاسم عن طريق عشيق متولع، وانقلاب تموز ٦٨ عندما نسي العقيد سعدون غيدان المتواطئ ساعة الصفر لكي يسلم مفاتيح القصر الجمهوري للانقلابيين لأنه قضى الليلة في غرفة عشيقة وكان الانقلابيون على وشك الانصراف حين هبط من السيارة في الفجر مترنحاً من السكر».

« نحن أجيال ليالي الغلطة. تحيات فريدة لك مع الأمل بلقاء قريب».

كانت فريدة قد خرجت، مشعة، كما لو كانت تستحم تحت مطر صيفي في غابة مطرية قرب نبع ماء وفي البعيد ذئب يعوي من مكان ما من صحراء أو جسد، في حين كان الشارع ساكناً كما لم يكن يوماً. نقلت لها أخبار العقيد وفتحت عينيها قائلةً:

« غير مستبعد أن تكون الرصاصة مسممة».

« هل حدث هذا من قبل؟»

«كثيراً. كانت شكوكه واضحة من قوله في مكالمة سابقة من عبارة» في كل الأحوال» لا يجب أن يتسرب خبر علاقتنا لوسائل الاعلام».

« صرنا نحن من يجب أن نتستر على علاقتنا. ربما نحتاج الى تبريرها».

«انقلاب معايير. هل تعرف؟ شبحك في ذلك الفجر البعيد وأنت تغادر للمرة الأخيرة وأنا في الطريق الى الفرن، لم يغب عني أبداً، كما لو أنه ملخص حياة».

« أقرب الى عبارة همنغواي: والآن؟»

« أكثر قسوة لأن عبارته نهاية حياة في الأقل. كيف حال إيغوشي؟».

اقتربت منها أكثر وقلت:

« يفكر في قضاء ليلته قرب فتاة عارية يحلم بحياته الماضية في ضوء حضور نقي ورائحة طفولية من جسد صامت».

على جدار غرفة النوم الأمامي سجادة صغيرة مطرز عليها صورة رجل ملثم مسلح ببندقية على كتفه فوق جواد تحت قمر صيفي ونجوم مضيئة في صحراء وخلفه امرأة تتمسك به بقوة وهو يلتفت الى الخلف كلوحة صحراوية لمارك شاغل. يلوح الجواد محلقاً

وخلفه الغبار.

كنتُ تلك اللحظة في الطريق الى صعود جبل زورزك بقممه المتعددة وذراع ناعمة تلتف حولي وصراخ نوارس الليل وايقاع خبب الجواد والسرج المبلّل والريح والرمل.

* * *

قاطع طريق الأمل

«إذا كنتم تمثلون المستقبل،

فستكون جلودنا أحذية لجنرال قادم»:

رواية: سنوات الحرق. حمزة الحسن، عام ٢٠٠٠.

أفقت على صوت آذان الفجر. تسللت من الفراش ولم أوقظ فريدة النائمة بوداعة. تركت لها ملاحظة في بريد صفحتها تقول نازل للمشي قليلاً. ارتديت ملابسي وقررت التسكع كي أشم رائحة الفجر والصباح الذي لم يحدث منذ ثلاثين عاما تقريباً. موعد مع فجر عراقي قبل الضجيج. في الطريق نحو ساحة التحرير، خطر لي أنني نسيت جوازي الأجنبي ولا أحمل اية ورقة تثبت شخصيتي لكن المسدس تحت الكتف اليسرى كما في النوم تحت الوسادة.

لا أعرف لم انعطفت نحو حي البتاويين وتجولت من الأورفيلية الى نهاية شارع الزعيم عبد الكريم قاسم ومررت بعوائل عربية سودانية ومصرية وأسر غجرية بعد تهجير الغجر. لم أفطن الى أن الشكل العام لي وطريقة المشي المتمهلة لا تتناسب مع هذه الأمكنة وهناك مافيات حول حديقة الامة لصيد زبائن الجنس والمخدرات والسرقة.

وقفت أمام أطلال قصر الشيخ محمد العريبي التي حاول نوري السعيد رئيس الوزراء الأخير في العهد الملكي الاختباء فيها يوم ١٤ تموز ٥٨ عام بعد الانقلاب على الملكية، لكنه لم يستدل على المنزل، فقرر الذهاب الى بيت صديقه هاشم جعفر الذي استقبله بامتعاض لأن نداءات في الراديو تطالب بالقبض عليه مقابل مكافأة مالية. لم يشعر بالأمان بسبب خروج طفل من المنزل واحتمال الوشاية به. قرر مغادرة المنزل بسرعة. عند عتبة الباب المرتفعة عثرت قدمه ولفت انظار المارة. شعر بالخطر عند اقتراب سيارة عسكرية منه. سحب مسدسه وأطلق النار على رأسه وسقط ميتاً. سحلت الجثة وقطعت أصابعه. قام ضابط عسكري بإطلاق النار على الجثة.

كيف يمكن لعثرة قدم أن تقود الباشا الى هذا المصير، وهو رفيق الكولونيل لورنس العرب في الثورة العربية الكبرى كما تسمى

عام ١٩١٦ في الجزيرة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية وخاض معه معاركه، الذي توفى هو الاخر عام ١٩٣٤ في كوخ منعزل بعد سقوطه من دراجة نارية في مدينة أكسفورد ودفن في مقبرة موريتون؟

لوح لي أكثر من شخص بعلامات تلمّح الى جنس أو مخدرات لكنني قررت الخروج بسرعة من الحي وقد شعرت بخطر يزحف. تحت ضجيج الخطابات والعناوين الكبيرة والجداريات اختفت هذه المناطق المعتمة واختفى العصيان والتشرذم واللايقين والانفلات وفقدان الأمل امام غابات السلاح والمواعظ والتماسك المصطنع.

من الخلف دوى طلق ناري والتفت الى الوراء. كانت رصاصة قد اخترقت الجزء الايمن من الظهر تحت الكتف وسقطتُ على الأرض بعد محاولات للوقوف. حاولتُ سحب المسدس من جرابه تحت الإبط المعلق في الكتف اليسرى. كانت يدي اليمنى ميتة لا تتحرك. كانت أقدام أشباح تلوح في الفجر الضبابي تقترب. فشلت ثانية في سحب المسدس. بكل ما أملك من قوة نجحت في رفع يدي اليمنى وسحبت المسدس المحشو بالطلقات.

والآن؟ قفزت الكلمة من أعماقي. لكن غشاءً رقيقاً حال بيني وبين كل شيء. داخل سيارة إسعاف ممدداً على نقالة، سمعت أحدهم يقول:

« هذا مجهول».

في غرفة بيضاء، كل شيء أبيض، أفقت متعرقاً. في هذا البياض الذي يغمر العالم، بين اليقظة والاغماء، خطر لي طيف فريدة تطوف الشوارع والمستشفيات ومكبات النفايات ومراكز الشرطة بحثاً عن شخص صار مجهولاً كما عاش في ظهيرة مشتعلة.

عندما أفقت من أعماق الغيبوبة، طلبت ورقةً وقلماً وكتبتُ:

«فريدة، أحببتك كما أحببت بغداد، كما كل الناس، وكل الذين قضوا دفاعاً عنها، حتى الذين لم يحبوننا يوماً ـ التوقيع: روبرت جاردن أو سافيانو، شارع السعدون، عمارة. رقم هاتف».

آخر ما سمعته قبل أن أغرق في النوم أو الموت قول شخص يطل فوقي بثياب بيض:

« بدأ يهذي».

لم أعد أتذكر شيئاً سوى وقع حوافر خيل في درب ترابي محاط بالدغل والأشجار.

* * *

BASRAYATHA
Publishing

I.BASRAYATHA.COM

تحاول هذه الرواية الدمج بين السرد الروائي التخيلي وبين التوثيق و"الرواية التوثيقية" من تقاليد الرواية العالمية وأحدث نماذجها الكاتبة البيلاروسيّة سفيتلانا أليكسييفيتش الحائزة على جائزة نوبل التي تستعمل تقنيات الرواية مع الوثيقة والشهادة والاعتراف واخبار الصحف وأشهر نموذج عربي هو الروائي صنع اللّٰه إبراهيم.

في" ولادة الذئب" تعزز الوثيقة السرد التخيلي كما يعزز هذا قيمة الوثيقة في عمل تبادلي الغرض منه توضيح مرحلة ملتبسة تتوقع الرواية في خلاصتها ولادة الذئب البشري الذي سيلتهم الجميع يوماً.

البنية الأساسية للرواية، العمود الفقري، هي مذبحة النساء قتلاً من خلال سرديات كاذبة تحت غطاء الانتحار، وتحاول هذه الرواية بالاستناد الى وثائق الشرطة والمستشفيات ومنظمات حقوقية واعترافات أقارب الضحايا بالأسماء والتواريخ والشهادات، تقديم سردية مختلفة عن الواقع الظاهري المزيف.

لا تقترح الرواية حلاً، ليس هذا واجبها، بل تقدم صورة واضحة عن مستقبل يتشكل الآن أمامنا في الضجيج والعماء والإدمان، وقد تكون صرخة تحذير على أننا كقطار منطلق فقد كوابحه ولم يبق غير الارتطام الأخير أو صخرة كبيرة تدحرجت من قمة جبل ولن يوقفها غير الحضيض.

BASRAYATHA Publishing

2024

WWW.BASRAYATHA.COM